رحلة إلى مهد البشرية

مذكرات طبيب مصري في تنزانيا

د. رشدي يوسف

دار نهضة مصر
للنشر

رحلة إلى مهد البشرية

مذكرات طبيب مصري في تنزانيا

د. رشدي يوسف

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

جميـع الحقــوق محفـوظــة © لدار نهضة مصر للنشر
يحظـــر طـبـــع أو نـشـــر أو تصـويـــر أو تخـزيـــن
أي جــزء مــن هــذا الكتــاب بأيــة وسيلــة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصويـــر أو خــلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريــح من الناشـــر.

الترقيم الدولي: 977-14-2044-5
رقم الإيداع: 2010/20095
الطبعة الأولى: يناير 2011

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفـــون : 33466434 - 33472864 02
فاكـــس : 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com E-mail: publishing@nahdetmisr.com

مقدمــة

قضيت في تنزانيا أربع سنوات لم يبطل فيها عجبي.

فحينما وصلت إليها مبعوثًا من قبل وزارة الخارجية المصرية، لم أكن أعرف عن هذا البلد إلا معلومـة واحدة، وهي أن عاصمـته دار السلام، وبعد وصولي إلى مطار دار السلام بأقل من ساعة تبددت هذه المعلومة، إذ علمت من القنصل المصري الدكتور خالد عمران، أن تنزانيا قد نقلت عاصمتها إلى مدينة «دودوما» اعتبارًا من عام 1996، وإن كانت الوزارات والسفارات ومراكز الحكم لا تزال في دار السلام، وهكذا فإن وزراء الحكومة ومعظم نواب البرلمان يقيمون في دار السلام، لكنهم حينما تبدأ الفصول البرلمانية يسافرون للقاء بعضهم البعض في «دودوما» التي تبعد 500 كم حيث مقر البرلمان، وتلك كانت أقل عجيبة وجدتها في تنزانيا.

ولما التقيت السفير المصري صبري مجدي صبري، وجدته شديد التواضع سريع الألفة، وقبل أن تنقضي ساعة زمن حضر مندوب من وزارة الصحة التنزانية حيث اصطحبني إلى فندق فخيم ينام في حضن المحيط الهندي، ثم نسيني، بعد يومين في الفندق شعرت بالقلق، فالمفترض أنني جئت من دولة إفريقية مستورة هي مصر لمساعدة دولة إفريقية فقيرة هي تنزانيا، فما بال القوم أنزلوني منزلاً حسنًا ذا نجوم خمس ثم تركوني، وبدلاً من أن أكون عونًا لهم أصبحت ضيفًا عليهم، ثم رأيت أن سكوتي على وضع كهذا هو وهنٌ أصاب نزعتي الوطنية، فخشيت أن أستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فاتصلت بمسئولي وزارة الصحة شارحًا أنني ما جئت من القاهرة كي أقيم في فندق على شاطئ البحر، فظن المسئولون أنني سئمت من البحر، فنقلوني إلى فندق في وسط المدينة، وقد مضت علي حتى الآن خمسة أيام نزيلاً في الفندق الذي استضافتني فيه الحكومة التنزانية، قضيتها بين المتحف الوطني والسفارة المصرية، أهل السفارة في غاية الود، لكن للقوم أعمالهم وأنا متعطل، وفي اليوم الخامس قصدت وزارة العافية وهو الاسم السواحلي لوزارة الصحة فاستقبلني أحد المسئولين بأدب جم، فشكوت له ما أعانيه من وخز الضمير، إذ جئت من مصر لتقديم المساعدة إلى الشعب التنزاني، وها أنا أجدني ضيفًا مكلِّفًا، فتبسم الرجل وكشـف عن أسـنان مثل حب الغمام وقال: لا تتعجل أنت في إفريقيا.

❀ ❀ ❀

قلت: أزور المتحف الوطني التنزاني، عساني أتعرف على ذاكرة هذا الشعب، فوجدت المتحف يتكون من بنايتين متواضعتين، أمامهما فناء كبير به أشجار عتيقة تمرح بين أغصانها عصافير ملونة، في تنزانيا عدة أنواع من العصافير، وتلك أول مرة أرى فيها العصافير الملونة وهي تطير في بيئتها الطبيعية، وتحت الأشجار العتيقة تسرح طيور الطاووس في خيلاء، تتباهى بألوانها الزاهية مستمتعة بالحماية التي توفرها لها السلطات التنزانية، فالسجن هنا هو عقوبة من يصطاد الطاووس، زوار المتحف قليلون، وقد بدأت جولتي بالبناية الأولى التي بها متحف التاريخ الحديث فلم أجد في هذا القسم خيرًا، بضع سيارات كان يستخدمها الإنجليز من حكام تنجانيقا قبل أن تتحد مع جزيرة زنزبار ليكوِّنا معًا جمهورية تنزانيا، وبضع سيارات كان يستقلها أول رئيس لتنجانيقا بعد الاستقلال (جوليوس نيريري)، منها واحدة رولزرويس أهدتها له بريطانيا، وبضعة موتوسيكلات كانت تصاحبه، وطبول عملاقة بعضها عبارة عن جذع شجرة ضخم، تقول اللوحات الإرشادية إن صوت هذه الطبول المهولة كان يسمع على بعد عشرة كيلومترات، وكانت تدق لاستدعاء أفراد القبيلة للحرب أو للحفلات القبلية، وكان لكل مناسبة نقرة خاصة، وبالمتحف حراب صيد كانت للقبائل التي سكنت منطقة تنجانيقا، وعدد كبير من الأقنعة الملونة المخيفة، وأدوات للزينة من عقود وأساور وأقراط يلبسها الرجال والنساء على السواء، وتمثال رائع لفيل صغير يحمل على ظهره لعبة تشبه لعبة السيجة، ومروحة ضخمة لطائرة مصرية، تقول اللوحة الإرشادية إنها سقطت في تنجانيقا وهي في طريقها من القاهرة إلى جنوب إفريقيا، لكن أمين المتحف لم يستطع أن يعطيني تفصيلاً أكثر مما هو مدوَّن على اللوحة الإرشادية، مثل: في أي سنة سقطت تلك الطائرة؟ وهل كان بها ركاب أم أنها طائرة نقل؟ وما هو عدد الضحايا؟

المفاجأة الكبرى كانت في قسم المتحف المخصص للتاريخ الطبيعي، فما إن دخلت متململاً حتى انفتح أمامي سرداب من الدهشة عاد بي ملايين السنين إلى عصر الديناصور، فوجدتني أمد يدي عبر الزمان كي أتحسس هذا الكائن الخرافي الذي جاوز الجبال طولاً، ولابد أنه كان يتعشى بعدة أفدنة من نبات الأرض، ولا يزال لغز اختفائه المفاجئ يثير النقاش بين العلماء، يقال إن كويكبًا أو نيزكًا ضخمًا اصطدم بالأرض فارتفعت سحابة ضخمة من الغبار حجبت ضوء الشمس وغيرت مناخ الأرض فلم يستطع هذا الكائن الجبار التعايش مع هذه التغيرات، الفقرة الواحدة من فقرات سلسلة ظهر الديناصور تماثل في الحجم كرسي الفوتيه الضخم، لعلها تحتاج العصبة أولى

القوة من الرجال كي يحملوها، مددت يدي أحاول أن أتعتع فقرة واحدة، ولكن يدي تشنجت وهزلت، ولم يكن ذلك كرامة من كرامات الديناصور، إذ لا بركة في الديناصورات، ولكنها هيبة أمام عظمة الخلق، ووقار في محراب التاريخ الطبيعي.

في ضخامة عظام الديناصور ما يثير العجب، وما أراه الآن هو عظمة تنتمي إلى النوع الأضخم الذي كان يتغذى على العشب، لقد سكنت الديناصورات بأنواعها العديدة وأحجامها المختلفة الأرض قبل 230 مليون سنة، وغادرتها نهائيًّا قبل 65 مليون سنة، فتكون قد سادت على الأرض قرابة 165 مليون سنة، من أنواع الديناصورات ما كان يمشي على أربع، ومنها ما كان يطير في الهواء، فيها ما تجاوز طوله عشرين مترًا، وفيها الذي كان أصغر حجمًا من الإنسان، لكنها رغم طول المدة الزمنية التي عاشتها على الأرض لم تترك وراءها إلا بعض عظامها وبعض بيضها وبعض آثار لأقدامها الثقيلة.

❀ ❀ ❀

بالمتحف هياكل عظمية لا حصر لها لأسماك منقرضة، بعضها نمت له أرجل فقفز إلى اليابسة ونسي أنه ابن بحر، فانقرضت زعانفه، ونمت له أيدٍ مكانها، وبعضها تردد بين البر والبحر وتلك هي فصيلة البرمائيات، لا بد أن العلماء قد أنفقوا وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا في تصنيف وتسمية تلك الكائنات، لكن الإثارة الحقيقية جاءت حينما تحولت إلى جناح الأسلاف ancestors ، إذ وجدت بانوراما كاملة لسلسلة التطور، مراحل التطور متجسدة في الحفريات، مع صور فوتوغرافية التقطت للأماكن التي تم فيها اكتشاف تلك الحفريات وطريقة استخراجها، ولا بد هنا من التنويه بأن عظام أسلاف الإنسان التي اكتشفت تم تقدير عمرها بواسطة الكربون المشع، وخضعت حديثًا لدراسات الحامض النووي (DNA)، أما كيف عاشت تلك العظام مطمورة ملايين السنين دون أن تبلى، فذلك يعود إلى الحمم البركانية التي سقطت فجأة فوق الكائنات، فحفظتها لنا من عوامل الفناء.

صور علماء الأركيولوچي تبعث على المهابة وهم ينكشون التراب بحثًا عن بقايا الكائنات التي عاشت ورمحت وتكاثرت وملأت الأرض ضجيجًا ثم طمرتها البراكين، من هؤلاء العلماء من هو طاعن في السن لكنه ينحني في وقار ممسكًا بفرشاة أسنان يزيل بها الركام البركاني عن الأحافير في صبر ورقة، لم أكد أتخفف من الدهشة التي أصابتني جراء مشاهدة عظام الديناصور وأنتقل إلى قاعة أخرى من قاعات المتحف حتى وجدتني أتخشب مذهولاً

أمام جمجمة صغيرة تقول اللوحة الإرشادية: إنها للكائن المسمى «هوموهابيلس» وهو أول حلقة في سلسلة التطور البشري، وهو الجد الأعلى لصنف البشر، عمره صغير نسبيًّا، إذ ظهر على الأرض قبل أقل من اثنين ونصف مليون سنة، وكان صغير الجسم صغير المخ إذ يبلغ حجم جمجمة رأسه نصف حجم جمجمة الإنسان الحالي تقريبًا.

انتهى كلام اللوحة الإرشادية، لتبدأ الأسئلة تتزاحم في رأسي عن هذا النوع الإنساني، كيف استطاع هذا الكائن القليل الحجم أن يكون هو الأقوى بين كل الكائنات التي ظهرت على سطح أمنا الأرض؟ وما هي أسرار قوته؟ وكيف اعتبره العلماء أول حلقة في سلسلة النوع البشري إذا كان الرسم التوضيحي لشكله يجعله أقرب إلى القردة منه إلى الإنسان؟ ثم ما هي العتبة التي قفزها هذا الكائن فجعلته ينفصل عن النوع الحيواني ليقترب من النوع الإنساني؟ وكيف وأين تم اكتشاف تلك البقايا العظمية لهذا الجد؟ ثم ما الذي نعنيه بمصطلح الكائن البشري أو الإنساني؟ إن معلوماتي في هذا الموضوع شحيحة بل هي منعدمة، والنتيجة المؤكدة لهذه الدهشة التي أنا فيها تعني أن العلماء منذ أوائل القرن العشرين على الأقل، قد اتفقوا على تعريف لماهية النوع الإنساني، وها أنا في القرن الحادي والعشرين لا أعرف هذا المعنى، فما هذا الجهل الذي أنا فيه؟

القرود في مدخل متحف دار السلام.

خرجت من متحف التاريخ الطبيعي في دار السلام وأنا مثقل بالأسئلة، لم يتح لي أن أزهو قليلاً بلقب خبير الذي أسبغته عليَّ الخارجية المصرية قبل سفري إلى تنزانيا، لقد أتيت إلى هنا للمساعدة، وها أنا أطلب المساعدة في فك شفرة هذا البلد المثقل بالألغاز، تلك الألغاز التي سوف تتضاعف حينما أقوم بزيارة جزيرة زنزبار لأول مرة، لأجد نفسي أدخل إلى قصور عربية بناها سلاطين من عرب عمان، حكموا هذه الجزيرة، وبنوا دار السلام على الشاطئ الإفريقي المقابل للجزيرة، ونشروا الدين الإسلامي في هذه البقعة من العالم، وأَثْرَوْا لغة سكان سواحل شرق إفريقيا بالألفاظ العربية، حتى أصبحت تسمى اللغة السواحلية، اشتقاقًا من كلمة سواحل العربية، وهي اللغة الرسمية في كينيا وتنزانيا، الجلباب

العماني لا يزال هو اللباس الوطني لأهل زنزبار، أما الحلوى العمانية فهي لا تزال تصنع وتباع في هذه الجزيرة بعد أن رحل عنها العمانيون.

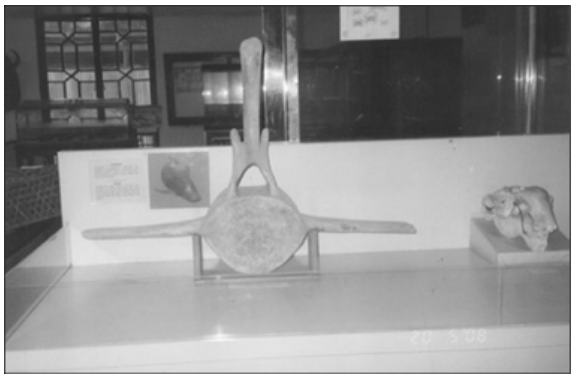

فقرة من سلسلة ظهر الديناصور - متحف دار السلام.

صور السلاطين العرب بملابسهم العمانية التقليدية تزين حوائط القصور، ومقتنياتهم الذهبية والفضية، والسيوف العربية الفاخرة والمباخر النادرة وأدوات القهوة العربية، واستخدام آيات القرآن الكريم في الزخرفة، وقصائد المديح التي نظمها الشعراء في مدح السلاطين والتي لا تزال معلقة على حوائط القصور التي كانت تزهو يومًا بأصحابها العرب قبل أن يهجروها أو يجبروا على تركها، متى وكيف حدث ذلك؟ إننا لا نكاد نعرف عن إفريقيا شيئًا، تلك القارة التي نعيش فيها، بل إننا لا نعرف حتى عن الوجود العربي الذي حكم شرق إفريقيا قرونًا، ونشر في تلك المنطقة ثقافته ودينه، وبث بين الناس مفردات لغته.

ذلك ما حفزني على الدرس طوال سنوات أربع قضيتها في تنزانيا، عدت أثناءها زائرًا لمتحف التاريخ الطبيعي، بعد أن تسلحت ببعض المعارف التي تعينني على فهم بعض الأسرار التي يحملها متحف التاريخ الطبيعي في دار السلام، كذلك عدت زائرًا إلى جزيرة زنزبار، بعد أن لملمت تاريخ الوجود العربي فيها، والذي لم يكتب بشكل مكتمل، ولا في سياق مستقل حتى الآن، وهو ما اقتضى مني أن أعيد غربلة المصادر التاريخية بحثًا عن وقائع الحكم العربي، لأجمع تلك الشذرات من بطون الكتب، وأعيد تركيبها رابطًا إياها بالمشاهد السياحية التي يجدها الزائر للجزيرة، إذ إن الجزيرة لا تكاد تملك من المزارات السياحية - فيما عدا استثناءات قليلة - إلا تلك التي شيدها العرب، أو تلك التي ارتبطت - لسبب أو لآخر - بالوجود العربي في الجزيرة.

لذلك فإن ما كتبته ليس مجرد مشاهد رحلة أو انطباعات زائر، وإنما اختلط هذا وذاك بالنظر في المراجع العلمية والمصادر التاريخية، لتفسير ما استغلق عليَّ فهمه، وما أردت تدقيقه من معلومات تتعلق بالتاريخ الطبيعي أو التاريخ السياسي لتنزانيا، وقد التزمت قدر الإمكان بالتسلسل الزمني للرحلة، التي

بدأت بالدهشة أعقبها طرح الأسئلة ثم البحث عن الإجابات، ومن ذلك الخليط العجيب تشكل هذا الكتاب، وتلك كانت مقدمته التي فرغتم الآن من قراءتها.

❀ ❀ ❀

الطريق إلى العاصمة

بعد أيام من وصولي تعرفت إلى الفريق الطبي الذي أوفدته الخارجية المصرية للعمل في تنزانيا، الدكتور عاطف أمين أستاذ جراحة التجميل بجامعة الأزهر والذي سبقني إلى تنزانيا بشهور، وهو أحد الوجوه المصرية المشرفة هنا، إذ استطاع خلال فترة قصيرة أن يحظى باحترام الأوساط العلمية، وهو الوحيد في تخصصه في عموم تنزانيا، وعصر اليوم السادس من إقامتي هنا، حضر من مصر الدكتور أحمد خالد، وهو اختصاصي في أمراض النساء، فرحبت به ترحيب العارف بالبلاد والعباد، إذ إنني أسبق منه هجرة بأسبوع، فلما وضع رحله ونزل غرفته من الفندق واستوى في مجلسه على كرسي الفوتيه، أخرج من جيبه ورقة مطوية زعم أن بها دعاء الدخول إلى المدن، ثم أخذ يتلو بصوت عال وأنا أقول آمين، فلما طال الدعاء وطال تأميني عليه، وداخله كلام تعوزه البلاغة وتفوح منه الحداثة، توقفت عن قول آمين، وصارحته بأنه يقول قولاً حسنًا، ولكني أظنه وقع على دعاء منحول، فقد كان رسول الله يتكلم بجوامع الكلم، وكان كلامه فصل لا فضول ولا تقصير، وطالبته بأن يتحقق من الإسناد.

وفي ضحى اليوم السابع جاءنا مندوب من وزارة الصحة التنزانية، يدعوني ومعي الدكتور أحمد خالد إلى لقاء مدير عام المستشفيات الدكتور زكريا بريجي، الذي تحدث بإنجليزية متقنة، فأثنى على مصر وأهلها، وأشاد بالمساعدات التي تقدمها لتنزانيا، ثم أخطرنا بأننا سنعمل في مدينة «دودوما»، وهي العاصمة السياسية للبلاد وفيها مكتب الرئيس ومقر البرلمان، وفيها أيضًا طبيبان من مصر، وإليها سيكون الرحيل غدًا، فرددنا على خطبته بأحسن منها.

وفي اليوم التالي تحرك ركبنا، فلما فصلت السيارة وألقت خلفها مدينة دار السلام، استقبلت طريقًا هو السحر، لوحة فنية تتماوج فيها ألوان الطبيعة، الأخضر من الأشجار الكثيفة التي تحف بالطريق وتتراقص في السهول، وقد تتقافز الأشجار أحيانًا فتصعد إلى الجبال التي تنتصب فجأة على مد الشوف، والأسمر من وجوه الناس وطين الأرض، والأبيض من قصور الأثرياء وأكواخ الفقراء التي تتناثر بين الأشجار، والأصفر من صخور وعرة تطل بوجهها

متمردة على استواء الأرض، أو جبال تسافر في السماء كي تغسل رأسها في السحاب، ومن قال إن الجبال كلها جرداء فقد أخطأ، فقد رأيت هنا جبالاً خضراء تكسوها الأشجار في تماوج مذهل، والمسافة بين دار السلام ومدينة «دودوما» هي 500 كم، وتلك فركة كعب عند أهل تنزانيا، لأن السكان هنا يتوزعون على كل تنزانيا، وليسوا مكدسين مثلنا في واد ضيق، ولذلك فالمسافات بين مدن تنزانيا طويلة جدًّا، على طول الطريق تتناثر قرى صغـيرة، بعضها لا يتجاوز عدة بيوت، وبعد أن قطعنا 190 كم ظهرت لنا أول مدينة، وهي مدينة (موروجورو) تلك الساحرة التي تستريح في دلال في حضن سلسلة جبال)أولوجورو(التي تمتد من وسط كينيا إلى وسط تنزانيا ويصل ارتفاع تلك الجبال إلى اثنين ونصف كيلو متر بمحاذاة المدينة، عدد سكان المدينة 300 ألف نسمة، وبها كلية للزراعة، والمدينة تحتوي على 400كم^2 من الغابات، منها 270 كم^2 مربع غابات جبلية بها 15 نوعًا نادرًا من الطيور، و11 نوعًا من الثدييات، وفي يناير 2007 اكتشف في هذه الغابات نوع نادر من طير ملون لم يكن معروفًا من قبل، أكبر قليلًا من الحمامة ولكن ألوانه زاهية ويصدر نغمات شبيهة بنغمة البيانو تتكون من خمس حركات وتزداد ارتفاعًا بالتدريج، وقد قدر العلماء أن الموجود من هذا الطائر لا يتجاوز 1200 زوج، وعلى الفور فرضت عليه حماية الأمم المتحدة، الطريق إلى تلك المدينة ينحدر نزولاً كأننا نهبط في طائرة، ينفتح أمامنا المشهد على أشجار تغطي السهل، تنهض وسطها بيوت ملونة، وما إن نزلنا من السيارة حتى أحاط بنا الباعة ومعهم فاكهة الأرض، موز ومانجو وبرتقال، وبضائع صينية من كل نوع، وبيض مسلوق، وأكياس من القصب المقشر والمقطع إلى قطع صغيرة، وجوز ولوز، وإلحاح لا يطاق من البائعين. فلم نمكث إلا دقائق ثم انطلقنا لنصل إلى العاصمة دودوما قبل غروب الشمس، حيث كان في استقبالنا مدير عام الشئون الصحية الذي اصطحبنا إلى فندق صغير يتوسط البلدة.

❀ ❀ ❀

اللهم أصلح لنا أحوالنا ويسر لنا أمورنا في هذه البلدة الطيب أهلها، وجوه الناس هنا سمراء باسمة على الرغم من مظاهر الفقر التي لا يمكن إخفاؤها، المدينة مفرودة على الأرض، وبيوتها طابق أو طابقان، ثقافة الخضرة هنا شائعة بين الناس، الفنادق الفاخرة تحيط بها حدائق ملونة ومنسقة بيد فنان ملهم، نباتات الصبار المتنوعة تحولت إلى لوحات فنية وقد حاصرها الورد الملون، حتى أكواخ الفقراء تحيطها حدائق صغيرة، لا أحد هنا يسيء إلى النبات، أول ما استقبلني في مستشفى دودوما العام حديقة غناء يرتفع

وسطها علم البلاد، المستشفى طوله كيلومتر وعرضه نصف كيلومتر، يتكون من دور واحد عبارة عن عنابر تفصل بينها حدائق منسقة، النباتات والزهور هنا تحظى بالعناية والرعاية أكثر من المرضى، وفي المستشفى التقيت الدكتور زكريا الحلواني، وهو لواء سابق بالجيش المصري، وهو أيضًا جراح ماهر، ووجه مصري مشرّف آخر، وكذلك الدكتور عادل الوكيل اختصاصي الأشعة، وذلك ما خفف عليَّ وجع الغربة، بالمستشفى أيضًا خمسة من الأطباء الصينيين، وقد اكتشفت أن في كل مدينة من دول وسط إفريقيا أطباء من الصين، أيضًا أقامت الصين مشروعًا للمياه النقية لخدمة العاصمة، وكذلك مبنى فاخر للبرلمان التنزاني أمشي من أمامه كل يوم، والصين لا تفعل ذلك حبًّا في عمل الخير، وإنما لأن البضائع الصينية تنتشر في كل مكان هنا وصولاً إلى أبعد القرى، وذكاء الصينيين في تسويق منتجاتهم قد دفعهم إلى تخصيص جزء من الأرباح لتقديم المساعدات لهذه الدول، أما أنا فقد فشلت فشلاً ذريعًا في تسويق الدواء المصري، على الرغم من جودته واعتدال أسعاره، لكن ذلك موضوع يطول شرحه.

❀ ❀ ❀

من ساءه أن يرى صورًا من الفساد في الجهاز الإداري لبلاده فليأت إلى تنزانيا، إذ الفساد الإداري هنا أكوام فوق أكوام، فقد حسبت أننا معشر المصريين نمتلك أعقد جهاز إداري نباهي به الأمم، إذ تبلغ سطوته إلى حد أن أصغر موظف فيه يستطيع إزهاق أرواح العصبة أولي القوة من المواطنين، ولكني لما أتيت إلى تنزانيا وجدت هبلاً واستهبالاً في جهازها الإداري، وذلك في تقديري يعود إلى غيبة نظام متوازن في الحقوق والواجبات، وتلك هي آفة العالم الثالث، وفي غياب هذا التوازن تنمو النزعة الفردية ويغيب الحس القومي، وتطفو على السطح قيم الوصولية والانتهازية فيبحث كل مواطن عن خلاصه الفردي ولو تناقض ذلك مع المصلحة العامة.

أما من أزهقت روحه الفجوة بين أقوال الناس وأفعالهم فليلقني في تنزانيا، فقد تاهت هنا العلاقة بين القول والفعل، ولقد رأيت أطباء المستشفى الذي أعمل به يتركون مرضاهم أحيانًا مكدسين أمام العيادات، ويذهبون لعقد اجتماع يستمر ساعات يناقشون فيه كيفية القضاء على تكدس المرضى، ويندر أن تجد في تنزانيا مسئولاً في مكتبه، إذ إنهم في مؤتمرات تتلوها مؤتمرات تعقبها توصيات لبحث أفضل السبل لخدمة المواطن، وبذلك يتعثر الجهاز الإداري، وتتوه مصالح المواطن. لكن من كان الرقص همه في الحياة الدنيا فسيجد هنا أرقص خلق الله، ولنساء تنزانيا في الرقص صنعة عجيبة،

وحركة سريعة، فلا يلحق أعلاهن بأسفلهن من شدة الحركة، ورجال تنزانيا أرقص من نسائها وأرشق حركة، والرقص هنا يكون في الأفراح وفي المآتم كذلك، ولقد مررت صبح هذا اليوم بقوم يخرجون جنازة من دار لهم، فسمعت إيقاعًا حزينًا وشاهدت رقصًا بطيئًا ملتاعًا، وفي متن الكلام تفاصيل ما أجملناه.

شهر كامل استغرقه إعداد مكتب لي في المستشفى، مراسلات تنتقل من غرفة إلى غرفة فتستغرق أسبوعًا، ولقاءات طويلة عريضة، ووكيل وزارة لا يكف عن الكلام، وعن امتداح سجاياه، وأنا لا أطيق هذا النوع من المسئولين، فقد شبعت منهم في مصر، ويبدو أن القدرة على الكلام الفاضي الذي لا مضمون له هي أحد أسباب الصعود الإداري في العالم الثالث، وكان ذلك أول احتكاك لي بالنظام الإداري هنا، وقد تفضل صديقي الدكتور زكريا فنقل الموضوع إلى السيدة (سنياجوا) سكرتير عام المحافظة وهي سيدة ذات كفاءة إدارية رفيعة، عيناها تشعان بالذكاء والمودة، حضرت في اليوم التالي ففتحت غرفة وأمرت بتأثيثها فورًا فلم يستغرق الأمر ساعة زمان حتى كان لي مكتب، وممرضة تجيد اللغة الإنجليزية، ودعوة على العشاء في أحد فنادق العاصمة تقدم بها الدكتور زكريا ليجمع بيني وبين وكيل الوزارة وسكرتيرة المحافظة.

لم تمض إلا أيام قليلة حتى كان الاحتكاك الثاني بالجهاز الإداري، فقد أوشك تصريح دخولي إلى تنزانيا على الانتهاء، ولابد من استخراج إقامة نظامية، والإقامة تصدر من مكتب رئيس الجمهورية، والمكتب الرئاسي يحتاج خطابًا من وزارة الصحة، ووزارة الصحة أفادت بأن ملف أوراقي الرسمية الذي أرسلته القاهرة قد فقد، ولابد من أن أحضر «بدل فاقد»، وتلك هي الدائرة الجهنمية من الأوراق والتوقيعات التي لو قبل المرء دخولها فلن يخرج من نافها وساقيتها على خير. سألت صديقي الدكتور زكريا فقال إنه مر بنفس التجربة فقد أضاعت الوزارة ملف أوراقه، فأحضر «بدل فاقد» فأضاعته أيضًا، فأحضر بدل فاقد الفاقد، فكانت «التالتة تابتة» بإذنه تعالى؛ فقلت أعيدوني إلى قومي في مصر، فقد أدركت أن موظفي مصر وإن ضنوا علي كرام، ثم إن من رأى بلاوي الناس هانت عليه بلاويه، والمرء لا يعرف فضل أمه حتى يرى زوجة أبيه.

لكني قبل أن أوقع وثيقة استسلامي غير المشروط جاء الفرج، وهذه المرة على يد سيدة أخرى وهي الوزيرة التنزانية ذات الأصل والاسم الهندي شميم خان، فقد أصيبت الوزيرة أثناء وجودها في البرلمان باضطراب في توازنها

استمر دقائق، وقد قيل لها إن هناك طبيبًا مصريًّا وصل حديثًا إلى العاصمة، فطلبت إليَّ أن أنظر حالتها، ولما أعطيتها العلاج واستقرت حالتها، طلبت منها أن تحضر في اليوم التالي إلى المستشفى لعمل بعض الفحوصات، وفي الموعد جاءت الوزيرة موفورة العافية، وبعد الفراغ من الفحوصات، حكت لي (وأسرفت في الحكي كعادة النساء) عما تبذله من جهد، وعن الانتخابات القادمة، واحتمالات دخولها في التشكيل الوزاري مرة أخرى، وعن زيارتها الأخيرة لأمريكا، وكيف أن الأسعار هناك أرخص بكثير من هنا. وعن الطباخ الذي يعمل عندها، وسألتني إن كانت تستطيع أن تفعل لي شيئًا، فحكيت لها عن متاهة الأوراق التي تضيع في الوزارة، وطلبت منها أن تحدد لي موعدًا مع وزيرة الصحة السيدة أنَّا عبدالله. قالت إن (أنّا) كانت وزيرة للداخلية في التشكيل الماضي، وإنها زوجة رئيس البرلمان، وقد تزوجته عن حب، ولها الآن من الأولاد كذا وكذا، وأنها وزيرة حاسمة، ثم أعادت علي القول، هل تريد أن تقابل أنّا؟ قلت: ولن أرضى بأقل من أنّا.

قالت لك ذلك، سأحدد لك موعدًا معها خلال يومين، ولكن دعني أولاً أتصل بوزارة الصحة لأرى ما هذا العبث.

وأخرجت تليفونها المحمول، وتحدثت مع وزارة الصحة، فقالوا لها للأسف الشديد لقد ضاع ملف أوراقه.

قالت: إنه يطلب مقابلة وزيرة الصحة.

قالوا: لا داعي لذلك، أمهلينا دقائق وسوف نجد الملف.

ثم لم يلبث جهاز الفاكس بالمستشفى أن أضاء ووصلت أوراق عليها توقيعات وأختام.

فالحمد لله الذي نجانا من هذه العلقة الإدارية، وجعل خلاصنا منها على يد سيدتين فاضلتين من أهل تنزانيا.

دودوما (ها هو يغرق)

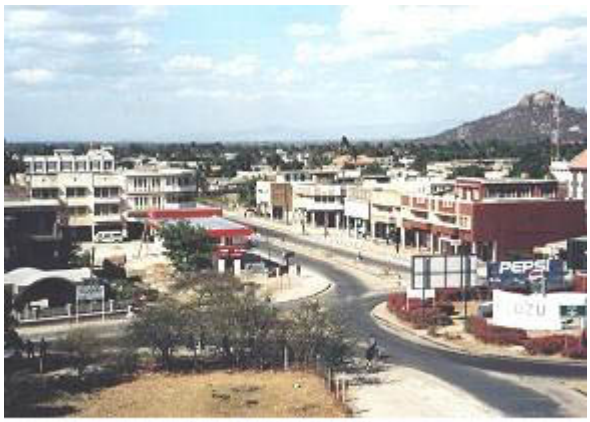

العاصمة دودوما

تقول الأسطورة المحلية في شرح معنى كلمة)دودوما(: إن فيلاً كان يمشي في هذا المكان، فغاص في مستنقع من الطين، وقد كافح ليرفع نفسه، ولكن جسمه الضخم أخذ يغوص في الطين فلم يبق إلا ذيله، فلمّا رأى السكان من قبيلة واجوجو هذا المنظر، أخذوا يتصايحون قائلين دودوما دودوما Dodoma Dodoma وهي كلمة بلغة القبيلة الإفريقية تعنى)ها هو يغرق(. بعدها صارت كلمة دودوما اسمًا لهذه المنطقة، دودوما تقع وسط تنزانيا، وهي معتدلة المناخ مفرودة على الأرض.

تكاد تكون ربيعًا مقيمًا معظم شهور السنة، النباتات والزهور تنتشر في كل مكان، أما البيوت فهي تتناثر في دائرة يبلغ قطرها حوالي عشرة كيلومترات حول مركز المدينة، الحكومة هنا على فقرها تراعي الخصوصية الثقافية للسكان الذين لا يطيقون الزحمة ولا الشوارع الضيقة، لذلك مدت الطرق وأعواد الكهرباء وشبكات الماء إلى مسافات بعيدة، أما وسط المدينة فهو عبارة عن تجمع للمصالح الحكومية والمحلات التجارية الرئيسية والمطاعم والمستشفى العام الذي أعمل به والكنيسة التي تجاور المستشفى، وحوالي خمسة أو ستة مساجد، إذ إن لكل طائفة من المسلمين مسجدًا خاصًّا بها، في طرف من مركز المدينة يوجد سوق مسقوف للخضار، سوف تجد في السوق معظم الخضراوات المعروفة تأتي بها العربات طازجة من القرى المجاورة كل يوم، الخضراوات والفواكه هنا طبيعيــة كما خلقهــا الله، لا يوجـد أي أثر للتهجـين أو تطوير الخواص أو استخدام المخصبات، البرتقال هو من النوع البلدي فقط، أمّا الموز فيوجد منه خمسة أو ستة أنواع متفاوتة الحلاوة، منها نوع كبير عديم الحلاوة يؤكل مطبوخًا، المانجو هنا من النوع السكري فقط ولا مثيل له في حلاوة الطعم، معظم الباعة هم فلاحون زرعوا هذه الخضراوات أو جمعوا تلك الفواكه، ولذلك يبيعون بضاعتهم بالعدد أو

بالكوم، الميزان يستخدم على أضيق نطاق عند الباعة المحترفين فقط، بالسوق خمسة أنواع من الأرز تتفاوت في فخامتها، معظم الخضراوات متوافرة على مدى العام، لأن درجات الحرارة متقاربة بين الصيف والشتاء، الكرنب هنا يباع طوال أشهر السنة، ولكنهم يستخدمونه في الحساء، عمنا اللواء الدكتور زكريا هو أول من صنع المحشي)الملفوف(في شرق إفريقيا على ما أعلم، لكن مشكلته أنه لم يجد شبنًا أو مقدونس فاكتشف في السوق نوعًا من الخضراوات يخلطه مع الأرز فيصنع منه المحشي)الملفوف(، لذلك فإنني في أول زيارة للقاهرة أحضرت معي بذور الشبت والبقدونس والجرجير حتى أستنبتها في أرض تنزانيا، وقد طلبت من سائقي المستر «سانجا» أن يترجم للفلاحين الذين يزرعون الخضار قرب منزلي أنني أريد أن أستأجر قطعة أرض صغيرة كي أزرع فيها بعض النباتات، فلم يفهم معنى أنني أريد أرضًا بالإيجار، ألححت عليه في الشرح فلم يقتنع، ثم قال لي وقد نفد صبره إنه يفهم أن الاستئجار يكون لبيت أو لسيارة، ولكن كيف لي أن أستأجر أرضًا، بعد شياط وملاحاة معه أدركت أن القوم هنا لم يرد عليهم بدعة استئجار الأرض، إذ إن الأرض ممتدة ويستطيع أي أحد أن يمهد من الأرض ما يقدر على زراعته فتصبح ملكًا له، فطلبت من فلاح طيب أن يمهد لي بضعة أمتار من الأرض، وأن يتعهد بسقايتها مقابل خمسة دولارات شهريًّا ففرح الرجل. الزراعة هنا تتم على مياه الأمطار التي تسقط بغزارة من ديسمبر حتى إبريل، والمطر يتجمع في المناطق المنخفضة مشكلاً بركًا وجداول صغيرة يستخدمها الفلاحون في الزراعة طوال العام، ينقلون الماء من تلك البرك إلى الأراضي المحيطة بها بواسطة ماكينات الشفط أو بعض المضخات البدائية، أو حتى الجرادل، بعض البرك تصل مساحتها إلى عدة أمتار، وبعضها يصل اتساعه إلى عدة كيلومترات، الاستثمار الرأسمالي في الزراعة محدود، وذلك لأن الرأسمالية التنزانية حديثة التكوين فاسدة المنشأ، بدأت في الظهور عقب تفكك مشروع رأسمالية الدولة الذي قام به جوليوس نيريري، والذي يتشابه في كثير من معالمه مع مشروع عبدالناصر في مصر، تلك التجارب التي رفع بعضها أو كلها تقريبًا شعار «الاشتراكية» فأربك المحللين السياسيين، العجيب هنا أن الطبقات الشعبية وكذلك الطبقات

جوليوس نيريري

البرجوازية في تنزانيا تتحدث عن نيريري بكثير من المودة والحب، حتى إنهم لا يزالون يضعون صور نيريري في جميع المكاتب الحكومية وجميع سفارات تنزانيا بالخارج بجوار صور الرئيس الحالي، نيريري هو الرئيس الوحيد الذي وجدت له تماثيل في تنزانيا، يتغير الرؤساء فترفع صور الرئيس القديم وتوضع صور الجديد، لكن صور نيريري تظل ثابتة، قلت لصديقي الدكتور متيمبا، وكيل وزارة الصحة في تنزانيا: أنا أتفهم أن الطبقات الشعبية تحمل احترامًا لذكرى نيريري لأنه منح تلك الطبقات الكثير من المكاسب، لكني أتعجب من سلوك الرأسمالية التنزانية التي تحمل نفس التقدير لتجربة نيريري، أجاب الرجل في بساطة: تلك التجربة كانت ضرورية لبناء الدولة. أدهشتني بساطة إجابة الدكتور متيمبا رغم أنه رجل سطحي في ثقافته، لكن ما قاله هو الرأي السائد في أوساط الطبقة الوسطى في تنزانيا، نحن في مصر نفتقد هذا المعنى، لأننا لا ننظر إلى النظام السياسي في إطاره التاريخي، فنحن نقارن تجربة عبدالناصر بما قبلها وما بعدها من تجارب سياسية، كأنما تلك التجارب هي خيارات شخصية للزعماء، لا نضع في اعتبارنا الضرورات التاريخية للتجربة، ولا درجة التطور التاريخي للطبقات الاجتماعية، لأننا ننظر إلى الواقع نظرة سكونية، وتلك بعض معالم السلفية العقلية المتأصلة في أدمغتنا، خطأ آخر وقعنا فيه نحن ومعظم دول العالم الثالث، وهو أننا اعتبرنا تلك التجارب اشتراكية، فانقسمنا بين مؤيد للاشتراكية ومعارض لها، وعقدنا مقارنات فجة بين رفاهية الرأسمالية وأهلها وجفاف الاشتراكية وأهلها، كأنما النظم السياسية وأنماط إنتاجها معروضة في فتارين العرض أمامنا وعلينا الاختيار بين الحلو والمر، وتلك سذاجة سياسية لقوم جعلوا الجعجعة أكبر همهم، وادعاء الثقافة والتظرف في الكلام أحلى أمانيهم، لكن لو أخذنا في اعتبارنا أن تلك التجارب الوطنية قد اجتاحت العالم الثالث في تواريخ متقاربة، فإننا سوف نلاحظ أنها كانت ضرورية لتحقيق قدر من الاستقلال للسوق الوطني بما أسبغته عليه من حماية، وأنه عندما تكون الرأسمالية الوطنية ضعيفة هزيلة وعاجزة عن تحقيق استقلالها السياسي من احتلال الرأسماليات القوية، وعاجزة عن المنافسة حتى داخل سوقها المحلي، فإنها تختنق أو يتوقف نموها وهو ما يعرف في الأدبيات السياسية بالتطور المحجوز، عندها تصبح الثورة هي وسيلة الطبقات الوسطى في التحرر من سطوة وهيمنة الرأسمالية العالمية، ويصبح فرض إجراءات لحماية السوق الوطني هو ضرورة كي تتحرر الرأسمالية المحلية، ويصبح توجيه الموارد العامة للدولة لتنفيذ برامج تنمية إنتاجية هو وسيلة الطبقة الوسطى لإنقاذ نفسها من الخنق

المتعمد الذي تمارسه الرأسمالية الاحتكارية، بل أكثر من هذا فإن إنعاش الطبقات الشعبية هو ضرورة من ضرورات نمو الرأسمالية الوطنية، لأن رفع المستوى الاقتصادي لهذه الطبقات عن طريق توفير فرص عمل حقيقية يعني دخولها إلى السوق الوطني كقوى شرائية تنفق ما تحصل عليه من أجر في شراء وتشجيع المنتج المحلي، وتلك هي الملامح العامة التي شكلت معالم الأنظمة السياسية التي ظهرت في العالم الثالث في أوقات متقاربة صاحبت انحسار الاستعمار الرأسمالي بشكله العسكري الفج، لكن تلك التجارب أيضًا بمجرد أن أعطت دفعًا محدودًا للرأسماليات المحلية وأنقذتها من الخنق الاستعماري، سرعان ما راحت تنحل واحدة بعد أخرى، وما حدث في مصر سوف يحدث في معظم الدول الإفريقية التي تشابهت ظروفها التاريخية، ومن المفهوم طبعًا أن تلك التجارب الثورية في الاستقلال والتنمية كانت تتعامل مع خصائص محلية متفاوتة في النمو، لذلك فإن حظوظها من الإنجاز سوف تتفاوت على مستوى تطوير أدوات الإنتاج الرأسمالي وتطوير السوق الوطنية، وعلى هذا فإن الطبقات الوسطى قد رفعت شعارات ثورية واشتراكية وتحالفت مع الطبقات الشعبية كي تطرد الاستعمار الرأسمالي وتحرر سوقها الوطني وتنقذ نفسها من الحجز التاريخي الذي فرض على نموها، وحينما أنجزت بعضًا من برنامجها السياسي، فككت وأنهت التحالف مع الطبقات الشعبية، وأنزلت الشعارات الاشتراكية التي تجذب الفقراء ورفعت الشعارات الرأسمالية صراحة في غير خفاء، ليس في الأمر إذن خديعة سياسية وإنما هكذا يتحرك التاريخ؛ جبهة وطنية تتشكل بقيادة طبقة اجتماعية هي التي تضع البرنامج وهي التي تفض الجبهة بمجرد إنجاز مهمتها التاريخية، وهكذا جرت الأمور في تنزانيا كما جرت في مصر مع فارق بيننا وبينهم، وهو أن الرأسمالية المصرية راحت تلعن عبدالناصر وأيامه، في سفاهة تجاوزت أحيانًا حد المقبول، بينما الرأسمالية التنزانية تنظر إلى نيريري في توقير واحترام، وتعتبر أن تجربته كانت ضرورة تاريخية.

قلنا إن الرأسمالية التنزانية في الوقت الراهن حديثة التكوين فاسدة المنشأ، ذلك لأن كثيرًا من أقسامها راكمت ثرواتها عبر نهب الملكية العامة، وعبر استغلال ثقوب الفساد الكثيرة التي تلطخ وجه الجهاز الإداري في العالم الثالث عمومًا، بالإضافة إلى أن الرأسمالية التنزانية لا تملك ما تملكه الرأسمالية المصرية من تجربة، إذ إن الأخيرة كانت قد خطت خطوات محسوسة قبل ثورة يوليو، فأنشأت صناعة وطنية محدودة، وأسست بنكها الوطني الذي قاد خطوات مهمة على طريق النهوض بالصناعة الوطنية، قبل

أن يصر الإنجليز على إقالة طلعت حرب عند أول أزمة تعرض لها بنك مصر، أما الرأسمالية التنزانية فقد تشكلت في رحم رأسمالية الدولة، ورضعت من نهب الموارد العامة للدولة، لذلك فإن أقسامها الرئيسية تفتقد الكثير من تقاليد وأخلاقيات الرأسمالية المنتجة، على سبيل المثال فإن تنزانيا تنتج من البرتقال والمانجو أكثر من احتياجاتها، والشعب التنزاني له كلف شديد باستهلاك العصائر الطبيعية، ورغم ذلك لا توجد مصانع لتركيز وحفظ هذه العصائر في تنزانيا، وإنما يتم استيرادها من كينيا، رغم أن هذه مشاريع صناعية صغيرة، ورغم أنني التقيت عناصر من الطبقة الوسطى في تنزانيا، وعلمت أن بعضهم يملك شققًا في إنجلترا، وبعضهم يملك أسهمًا في البورصات الأوروبية، فإن آفاق الاستثمار واسعة في تنزانيا، لكن رأسماليتها لا تملك أفقًا استثماريًّا، انعطفنا هذه الانعطافة حتى نفسر أسباب ضعف الاستثمار الرأسمالي في الزراعة التنزانية التي تمتلك مصادر كثيرة للمياه، ولكن الزراعة تحتاج مشاريع مائية ضخمة لا تستطيع القيام بها إلا رأسمالية قوية وواعية لواجباتها الوطنية، وتلك لم توجد أصلاً لا في تنزانيا ولا في مصر ولا في عموم العالم الثالث، لأن الشروط التاريخية لظهورها لم تتوافر، فالرأسمالية ولدت في العالم الثالث، بعد أن كانت الرأسمالية العالمية قد أتمت تطورها، وخانت مبادئها التي كانت ثورية في يوم من الأيام، وانتقلت من المنافسة الفردية وحرية التجارة، إلى الاحتلال والسيطرة على الأسواق بقوة السلاح، لذلك لم تجد رأسمالية العالم الثالث خيارًا أمامها إلا النضال السياسي، وتحرير سوقها المحلي بقوة السلاح أيضًا، وحمايته بترسانة من القوانين السيادية، أي كان عليها أن تحمي طفولتها بأن تستظل بظل سلطة الدولة، حتى تنجز المشروعات الضخمة وتستكمل بناء البنية الأساسية، فلم يكن من الممكن إنجاز مشاريع مائية كبيرة وتطوير الزراعة في تنزانيا إلا في إطار رأسمالية الدولة، وتلك أيضًا فككت نفسها واكتفت بما أنجزت أيام نيريري، وعلى ذلك سوف تجد مزارع متفرقة في تنزانيا، بعضها تصل مساحته إلى مليون فدان، هي بعض إنجازات نظام نيريري، وبعضها كان ملكية خاصة إبان فترة الاحتلال البريطاني، أما المزارع الأصغر مساحة فهي بعض إنجازات الرأسمالية الوطنية الواعية في تنزانيا، معظم هذه المزارع يقع على مسارات الأنهار أو يعتمد على المياه الجوفية، لكن الموارد المائية في تنزانيا غير مستغلة بشكل كاف، والإنتاج الزراعي رغم أنه يشكل دعامة الدخل القومي التنزاني فإنه لا يزال متخلفًا يعتمد طرقًا بدائية في الزراعة، أنهار تنزانيا وجداولها كثيرة، بعضها صغير لا يظهر على الخريطة، لذلك فإن

تنزانيا ليست بحاجة إلسحب مياه من بحيرة فيكتوريا ونقلها إلى أماكن بعيدة لزراعة الأرض، لا هي تحتاج ولا هي تستطيع ذلك، والموقف الأخير الذي اتخذته تنزانيا بالتوقيع على الاتفاقية الإطارية مع بعض دول حوض النيل لا يعني أكثر من لفت نظر مصر أو الضغط عليها من أجل تنفيذ مشروعات تنمية مشتركة في تنزانيا. الاتفاقية الإطارية نفسها ما هي إلا مبادئ عامة تتحدث عن التنمية المستدامة، وتلك مصلحة مشتركة تستطيع مصر أن تحققها مع إفريقيا، ففي إفريقيا يمكن زراعة أفضل أنواع القمح، ولكننا نستورد القمح من روسيا وأوكرانيا، وفي إفريقيا أجود أنواع الشاي والبن، لكننا نستورد الشاي من سيلان، والبن من البرازيل، وفي إفريقيا فوائض كثيرة من البقر والغنم، ولكننا نستورد اللحوم المجمدة من ثلاجات أوربا ومن الهند، وفي التنمية المستدامة تحقيق لمصالحنا ومصالح دول إفريقية يجب أن تكون عزيزة علينا، وأن نسترد نفوذًا كان لنا في يوم من الأيام؛ لو حافظنا عليه لترددت دول الحوض كثيرًا في التوقيع على أي اتفاقية دون موافقة وحضور مصر.

أقول قولي هذا وأنا أعرف أن مافيا استيراد اللحوم واستيراد الحبوب في مصر لن تتوقف عن تجويعنا وضرب أي استثمارات مشتركة تتم باسم الدولة، وإلا فليفسر لي أحد لِمَ انهار مشروع البتلو في مصر الذي كان يسدُّ بعض العجز في الناتج المحلي، ولِمَ توقفت مصر عن تجريم ذبح إناث البقر والجاموس ما لم يكن ذلك استجابة لمصالح المستوردين.

وهكذا بينما تنجح بعض دول العالم في تحقيق معجزات اقتصادية جعلت من الهند ذات المليار نسمة دولة مصدرة للحوم، فإن الفجوة الغذائية تتسع عندنا، وتلك بعض من نتائج زواج الثروة بالسلطة في مصر، ولعل الذين يتنادون باستعمال القوة المسلحة ضد دول حوض النيل هم بعض من المسخ الذي نتج عن هذا الزواج المحرَّم.

فإذا عدنا إلى الشبت والمقدونس الذي زرعناه قرب مسكني فسوف نجد تلك النباتات قد نبتت عفية نضرة ذات رائحة نفاذة، يبدو أن التربة الخصبة أكسبتها خواصَّ قوية، أما الطعم فهو أكثر نضارة مما نجده في مصر، والخبز عند أهل هذه البلاد أنواع ثلاثة، الفينو الذي نعرفه وهم يصنعون منه أنواعًا فاخرة، أما «الشاباتي» فهو نوع من الخبز الهندي أدخله المهاجرون الهنود معهم، طبقات رقيقة من العجين تفرد ثم تجمع فوق بعضها قبل أن توضع في إناء به قليل من الزيت، وللنساء هنا في صناعته سرعة ومهارة، وهو أقرب إلى الفطير لكنه يجب أن يؤكل فور صناعته، نوع ثالث ونادر تجده في

المطاعم التي يمتلكها اليمنيون، وهو خبز رقيق يسمى «الكِسرة» ومن اسمه تعرف أنه خبز عربي المنشأ وهو أقرب إلى الرقاق، لكنك لن تجد خبزًا طريًّا إن أنت أردت أكل البامية - وأنا من قوم حُبب إليهم أكل البامية - وهي هنا خضراء زاهية على مدى العام.

سألت عمنا الدكتور زكريا: ما العمل؟ فأخذ نفسًا عميقًا وتكلم بتؤدة تليق بأصحاب التجارب العظمى وقال إنه أجرى عدة تجارب لإنتاج الخبز البلدي، ولكنها فشلت جميعًا، فشرعت وإياه في إعادة البحث وإعمال الفكر، فكم من مجلس جلسنا، وكم من رسم وتصميم لأنواع من المخابز الصغيرة رسمنا، ولكن عزائمنا تبددت ومحاولاتها فشلت، إلى أن جاء الفرج على يد القنصل المصري صديقي الدكتور خالد عمران، ففي ذات زيارة لدار السلام، دعاني إلى الغداء في منزله، فوجدته قد وضع على السفرة العامرة خبزًا بلديًّا، فسألته عن سر الصنعة، فوصف وشرح وقال إن الخادمة التنزانية التي تعمل في مسكنه قد أصبحت ماهرة في صنعه، فنقلت التجربة بحذافيرها، وعلمته للخادمة عندي فبرعت في عجنه وخبزه، فاستقام لي أكل البامية في تنزانيا.

أما كلمة خادم التي ذكرتها آنفًا فهي ليست دقيقة والصحيح أنها مديرة المنزل، وهو نظام واسع الانتشار ومقبول اجتماعيًّا في هذه البلاد، ولمديرة المنزل غرفة خاصة وإجازة إسبوعية إن كانت سوف تقيم إقامة دائمة، في يدها محمول وتذهب للكوافير، وقد تكون جامعية تحسن لغة أجنبية، وقد تستأجر لبيتها مديرة منزل بينما تخرج هي للعمل مديرة لمنزل آخر، وهذا ما كان من أمر چين» التي عملت مديرة لمنزلي، بينما كان لمنزلهم مديرة أخرى، وتلك عجيبة من العجائب التي شهدتها في تنزانيا.

❀ ❀ ❀

لا توجد استثمارات ذات شأن في مجال الإسكان، لأن كل مواطن تنزاني حريص على أن يمتلك بيته الخاص مثل الفلاحين في مصر، البيوت هنا قليلة التكلفة لأن الأرض تباع بثمن رمزي، الحكومة تتقاضى أسعار مد المرافق فقط، ولذلك فإن البيوت متباعدة عن بعضها تفصلها مساحات خضراء، الممرضة التي تعمل معي اسمها ماما إيريرا، وهي تقيم في فيلا ذات حديقة بالقرب من مسكني، سألتها عن التكلفة الإجمالية لهذه الفيلا الجميلة فقالت: ما يعادل سبعة آلاف دولار، البيوت المعروضة للإيجار محدودة جدًّا، وهي إما

بيوت شعبية لا تليق، أو فيلات فاخرة ذات حدائق وغرف كثيرة، صحيح أن الخارجية المصرية هي التي سوف تدفع الإيجار، لكن ما حاجتي أنا الفرد الواحد إلى فيلا واسعة، لذلك اكتفيت بشقة في مجمع سكني أقامته وزارة الإسكان للموظفين المغتربين، حصلت عليها بعد شهر من إقامتي في الفندق، المساكن الحكومية هنا فاخرة أقرب إلى فيلات متعددة الطوابق، تفصلها حدائق واسعة ومنسقة، ولا تنتهي سلطة المؤسسات الحكومية عند تأجير العين، ولكن توجد رعاية يومية للحدائق وحراسة ليلية، كما يوجد مكتب صيانة بكل مجمع سكني به نجار وسباك وكهربائي، يكذب من يقول لكم إن الأفارقة كسالى، فهم مهندسون مهرة وعمال يتقنون أعمالهم، وحرفيون رفيعو المستوى، وفنيو كمبيوتر على درجة عالية من الخبرة والاستيعاب، لكن سرعة أو بطء الأداء يرتبط بتطور نمط الإنتاج السائد، حينما احتجت بعضًا من العمالة اليدوية لرفع الأثاث إلى مسكني، أقبلوا في منتهى النشاط والهمة، في مركز المدينة أرى بعض الشباب المتعلم يعرض منتجات صينية على رواد الكافتيريات، وبعضهم يتجول حاملاً على ظهره معرضًا صغيرًا للأحذية، يظل يلف ويدور بحثًا عن رزق حلال، حركة البيع والشراء هنا بطيئة لضعف القوى الشرائية. في كل الدنيا سوف تجد الأحياء الفقيرة والمساكن العشوائية على أطراف المدن، ولكن في «دودوما» سوف تجدها في مركز المدينة، أما في الأطراف فسوف تنهض أفخر الفيلات المحاطة بحدائق ذات تنسيق مبدع، التفاوت الطبقي هنا محسوس، في الشارع تجري أحدث أنواع السيارات، وشباب متعلم يتكلم الإنجليزية يكافح ويلف ويدور طول النهار ببضائع تافهة، رغم ذلك فإن الابتسامة لا تفارق الوجوه هنا، لكن أعجب ما رأيت هو دراجة هندية مزودة بموتور صغير طوله عشرة سنتيمترات وعرضه خمسة، وخزان وقوده لا يتسع لأكثر من ربع لتر بنزين، البدال يستعمله السائق فقط حينما يصعد مرتفعًا في الأرض لا يقوى عليه الموتور، فإذ ما استوى الطريق تولى الموتور الدفع، استوقفت صاحب الدراجة فلم يمانع، طلبت تجربتها فلم يعارض، الناس هنا في منتهى الألفة، نمط الإنتاج البطيء يعطي إيقاعًا مختلفًا للوقت، ليس هناك من سبب للعجالة في أي شيء. فكرت في أن أشتري دراجة مثل هذه وأحضرها إلى مصر وأقيم ورشة فأصنع وأبيع فأكون مليونيرًا مثل محمد فريد خميس أو أبو العينين، ولكني تذكرت أن للفلوس في مصر رجالاً يحبونها وتحبهم، يملكون من المهارات والتمائم والرقى ما يجعل الأموال تأتيهم منقادة تجرجر أذيالها، ولست منهم وإنما أنا من زمرة المساكين، فطوبى لي. ثم تذكرت أن آلافًا من براءات الاختراع أبدعتها عقول

الشباب المصري تقبع في سجلات المركز القومي للبحوث دون أن تجد من يرعاها، فالمؤسسات القومية لم تعد معنية باستثمار العقول المصرية، والرأسمالية الوطنية المصرية محدودة القدرات ولا تمتلك روح المغامرة، ثم إنها لا تستطيع فتح الأسواق أمام منتج جديد دون دعم حكومي، يضمن ويشجع ويعقد معاهدات دولية تروج للسلع الوطنية، اليابان فعلت ذلك مع هوندا صانع الدراجات،الذي صنع الموتوسيكل والسيارة اللذين يحملان اسمه واسم اليابان، ما كان من الممكن أن يتحقق له هذا النمو لولا دعم ورعاية السلطات اليابانية، التي راقبت وأقرضت وضمنت الإنتاج وفتحت الأسواق وعقدت معاهدات الصداقة والاتفاقيات التجارية مع دول العالم كافة لترويج المنتج الياباني، فهل ستنتبه السلطات المعنية في مصر لو كتبت لها بعض الأفكار؟! طيب. أنا فعلاً كتبت تقارير للخارجية المصرية عن تطوير العلاقات التجارية مع تنزانيا فلم يقرأها أحد، وكتبت أفكارًا لترويج الدواء المصري وتصدير الغذاء المصري إلى تنزانيا، فلم يسألني أو حتى يبلغني أحد أن مقترحاتي قيد الدراسة، فالجماعة عندنا في العسل نائمون، فالحذر الحذر من تعميم الأحكام فيما يختص بالشعوب، فعقولنا نحن سكان العالم الثالث ليست أقل كفاءة، والأفارقة ليسوا كسالى، لكن أنماط الإنتاج المتخلفة والنظم الإدارية المتآكلة هي التي تهدر طاقتنا وتعرقل تطورنا، صحَّ منَّا العزم، لكن الظرف التاريخي أبى.

❀ ❀ ❀

لا تستقيم الحياة هنا دون مديرة منزل، فالكهرباء هنا مرتفعة الثمن جدًّا، وتكلفة استخدام الغسالة الكهربائية فقط تفوق أجر مديرة المنزل التي تغسل على يديها، وتكوي الملابس، بالإضافة إلى باقي أنواع الخدمة من تنظيف وطهو، فاشترطت على محدثي أن يختار لي واحدة تحسن الإنجليزية حتى أفهم عنها وتفهم عني، وأن يقتصر عملها على سحابة النهار، فأحضر لي «چين» وهي فتاة تنزانية متعلمة تتحدث الإنجليزية بطلاقة، أبوها رجل دين يعمل مدرسًا في الكلية الإنچيلية، وأمها كذلك، وقد زارت أمها مصر وحكت لهم عن الأهرامات، «چين» تحب راما (وهو اسم الدلع لرمضان) وقد اتفقا على الزواج، فسألتها: إن كان أبوها رجل الدين المسيحي يقبل بزواجها من مسلم اسمه رمضان فقالت: إن أباها غير مرتاح إلى هذه العلاقة، ولكنه لا يعارضها معارضة صريحة، لأن للفتاة في تنزانيا الحرية المطلقة في اختيار

زوجها أو صديقها، وقالت أيضًا إن ابنة عمها تزوجت من مسلم، فسألتها: وهل حضر أهلها حفلة الزواج فسألتني متعجبة: ولم لا؟ فيما بعد حضرت عرسًا لفتاة مسلمة تزوجت من مسيحي، وقد بدأت طقوس الحفل برقصة بين والد العريس المسيحي ووالدة العروس المسلمة اللذين دخلا الحفل متشابكي الأيدي، اختيار الديانة هنا هو حق شخصي، الجميع هنا ينادون رجل الدين المسيحي بلقب «المبجل» أما الشيخ المسلم فإنهم ينادونه بقلب «الأستاذو» بواو - زائدة. حفلات الزواج هنا شديدة الفخامة تفوق قدرات العروسين، وذلك لأن دعوات الزواج تباع للأقارب والمدعوين ومن حصيلة البيع يتم تمويل مصاريف الحفل، وما تبقى يأخذه العروسان نقدًا، عجيبة أخرى شهدتها في تنزانيا وهي تعدد الزوجات بين المسيحيين وزواج المسلم بأكثر من أربع، ليست ظاهرة شائعة ولكنها موجودة وخصوصًا بين الأغنياء، سألت أصدقائي من أطباء المستشفى فقالوا لي: إن ما زاد على النصاب هو زواج غير رسمي، وبالتالي فلا تعارض، فقه إفريقي عجيب، حضرت صلاة الجمعة هنا وكان الخطيب يخطب باللغة السواحلية التي لا أفهمها، لكني أخذت أميز اسم حسان بن ثابت شاعر الرسول عدة مرات، تعجبت من احتفال الخطيب بحسان الذي لم يكن من كبار الصحابة، وقد أسلم وهو ابن ستين، لكن يبدو أن الخطيب كان يشرح قصيدة لحسّان.

في المولد النبوي يجتمع المسلمون في مجموعات حيث ينشدون بردة البوصيري، هكذا أخبرني ناصر الممرض المسلم، فطلبت منه أن يسمعني، فأنشد:

أمِـن تذكُّر جـيرانٍ بذي سَــلمٍ مَزجتَ دمعًا جرى من مُقلةٍ بدمِ

ناصر لا يفهم كلمة مما ينشد، ولكنه يردد البردة كلحن موسيقي منغوم، ويعتقد أن إنشاد البردة هو نوع من العبادة، صديقي كريم هو هندي صاحب سوبر ماركت، وهو يتبع هو وزوجته مذهب «الأغاخانية»، لهم مساجد مستقلة وقبور مستقلة ولهم عدة مستشفيات تحمل اسم «أغاخان» تنتشر في مدن تنزانيا، في رمضان قالت لي فاتيما زوجة كريم إن الصوم عندهم ليس إجباريًّا، فهو حسب القدرة، وقالت إنها تصوم يومًا وتفطر يومًا في رمضان. الجالية اليمنية هنا كبيرة، لكن معظم اليمنيين الذين ولدوا في تنزانيا لا يعرفون اللغة العربية، بعضهم يحفظ سورًا قصيرة من القرآن يتلوها في الصلاة لكنه لا يعرف معناها، أما محمد فهو رجل يمني يتكلم العربية، قال لي إنه ولد في تنزانيا ولكنه تعلم العربية من والدته، محمد يستأجر كافتيريا

فاخرة تتوسط العاصمة، ولكنها تعج بالشحاذين والباعة الذين يطاردون الأجنبي خصوصًا، اكتشفت أن التسول في تنزانيا عمل، فالفقير والعاجز من حقه أن يطلب الصدقة وهذا هو عمله، وهم هنا لا يطلبون بل يلحون إلحاحًا مزعجًا، عندما نهرت شحاذًا نظر لي الناس كأنهم يستنكرون، معظم أهل تنزانيا يفطرون خارج بيوتهم، المقاهي والكافتيريات هنا كثيرة، بعضها فاخر وأكثرها بائس، وهي تقدم وجبات إفطار بجانب المشروبات، في المقاهي الفاخرة يقدمون الدونات الأمريكي والبيض المسلوق المغلف باللحم المفروم وأنواعًا عديدة من المعجنات الفاخرة، أما في المقاهي الفقيرة فإن خبز الشاباتي الساخن مع الشاي هو الأكثر شهرة، لكني رأيت بعض الناس يطلبون شوربة ولحمًا مسلوقًا في الإفطار، في بعض الشوارع رأيت شوايات من الفحم يشوي البائع عليها نوعًا من الموز عديم الحلاوة، يقوم البائع بشق الموزة بعد شيها ويضع فيها قطعًا من الكبدة المشوية.

أثناء إقامتي في «دودوما» افتتحت الصين مطعمًا صينيًّا ألحقته بأحد فنادق العاصمة، وأحضرت له أولادًا وبنات من الصين، ومعهم البط البكيني وديكورات صينية بسيطة، فكرت في أن أنافس الصين وأقيم مطعمًا مصريًّا يقدم للناس الفول والطعمية، سوف تكون الأسعار أرخص وفي متناول الطبقات الشعبية، قلت لنفسي إنه من الممكن إحضار أسرة مصرية هنا لتقوم بزراعة الفول في أرض تنزانيا الواسعة، عرضت الفكرة على محمد اليمني صاحب الكافتيريا فاستحسنها، فدعوته إلى إفطار من فول وطعمية فازداد حماسًا، «چين» أيضًا أحبت الفول المدمس ولكنها تأكله مع طبق من الأرز كأنه نوع من الخضار، قلت أستطلع رأي أصدقائي من موظفي السفارة المصرية، فأحبطوني بإثارة التعقيدات المحتملة فتبدد المشروع، لم أشأ أن أكتب الفكرة أو أرفعها للخارجية المصرية، إحباط آخر يضاف إلى ما سبق من إحباطات يوم فكرت في تنشيط مبيعات الدواء المصري في تنزانيا، إذ إنه قبل سفرنا نحن الخبراء إلى الدول الإفريقية، اجتمع بنا وزير الخارجية أحمد ماهر ووزير الصحة محمد عوض تاج الدين، ولفيف من الخبراء والمساعدين لإعطائنا التلقين الأخير، كان الاجتماع في فندق «جراند حياة» حيث قيل لنا إنكم سفراء لمصر في الخارج، فلتسعوا إلى ترويج الدواء المصري والسياحة العلاجية، وكونوا رسلاً لترويج المنتجات المصرية.

حوار مع أحمد أبو الغيط وزير الخارجية أثناء زيارته للعاصمة دودوما.

حينما استقر بي المقام في تنزانيا لم أجد في صيدلياتها إلا قليلاً من الأدوية المصرية تعد على أصابع اليد الواحدة، وجدت أن كفاءة الأدوية المصرية وأسعارها المتهاودة تستطيع أن تنافس بسهولة في هذه السوق، فأعددت مشروعًا طويلاً عريضًا لنشر الأدوية المصرية، لو تمسك الأطباء المصريون بكتابة الدواء المصري لانتشر في إفريقيا، ذهبت لمناقشة المستشار التجاري بالسفارة المصرية ففاجأني الرجل بقوله: إنه يوجد أكثر من مائة نوع من الأدوية التي تنتجها شركات مصرية قد حصلت على ترخيص للتوزيع داخل تنزانيا، وقال إن لنا هنا العديد من الوكلاء التجاريين، وإن حجم مبيعات الدواء المصري لتنزانيا يصل إلى مائة ألف دولار سنويًّا، فقدرت أن حجم أرباح هذه المبيعات لا يتجاوز عشرين ألف دولار سنويًّا، وهو مبلغ صغير لا يكاد يغطي جزءًا من نفقات محمد خلاف المستشار التجاري المصري، قلت للرجل: كيف أكون طبيبًا مصريًّا ولا أعرف أنواع الدواء المصري المتاح هنا؟ بدا الرجل ضجرًا متأففًا من موضوعات النكد التي أثيرها، فأخذ رقم تليفوني ووعدني بإرسال قائمة بالأسماء التي طلبتها، وحتى الآن لم تصل إليَّ هذه القائمة، ولم أنقل هذا الموقف للسفير المصري، فقد خشيت أن أثير فتنة بين السفير وبين مستشاره التجاري، العيب ليس في المستشار التجاري ولكن العيب في نظام العمل في الخارجية المصرية التي ينقصها الكثير من تقاليد ربط المصالح الوطنية بالتمثيل الدبلوماسي، ذهبت الصين التي تقبع في آسيا بالمكارم كلها في الترويج التجاري، أما مصر الإفريقية فإن ممثليها التجاريين يترفعون عن المصالح الدنيوية.

ذات إجازة كنت أقضيها في مصر ذهبت للخارجية المصرية لتوقيع بعض الأوراق من الأمين العام للصندوق المصري للتعاون الفني مع إفريقيا، دخلت

الأوراق للأمين العام وخرجت ممهورة بالتوقيعات والأختام، نظام العمل في الخارجية المصرية شديد الانضباط، لكن الأمين العام لم يهتم بأن يطلبني كي يسألني عن أخبار البلاد التي أعمل بها، ما إن عدت إلى تنزانيا حتى وجدت هذا الأمين العام قد لحقني إليها مع وفد مرافق لسيادته، جاء ومعه رهطه الأدنون للاجتماع بالخبراء المصريين في تنزانيا، ومناقشة مشاكلهم، الإقامة في فندق خمسة نجوم، وبدلات الانتقال بالدولار، والكلام كما تعلمون ليس عليه جمرك وهو من نوعية: المصلحة الوطنية المصرية التي تعلو على المصالح الخاصة .. يا حلاوة.

❀ ❀ ❀

الناس هنا يتعايشون في توافق مع الطبيعة، يبدأ يومهم في السادسة صباحًا، وينتهي في الخامسة مساء، حيث تتوقف المدينة بالكامل، لتبدأ السهرات في النوادي الليلية وهي هنا كثيرة متفاوتة المستوى، فالناس هنا يحبون الرقص والفرفشة، أسفل البناية التي أسكنها يتجمع السكان في كل يوم سبت بعد العصر، السبت والأحد هنا راحتهم الأسبوعية، أما يوم الجمعة فهو يوم عمل ينتهي قبل صلاة الجمعة، كل ساكن يحضر معه «كرسيًّا» وبعض المشروبات التي توضع على طاولة جانبية، في هذا الاجتماع الأسبوعي يروي كل واحد ما حدث له من طرائف طوال الأسبوع، لا أفهم عنهم غير الضحكات، مع الموسيقى قد يشتعل الرقص، بعد حوالي الساعتين ينصرف كل واحد حاملاً كرسيه، الناس هنا يبتكرون طرقًا بسيطة للتسلية والتواصل الإنساني، تبًّا للوقار المزعوم الذي يشل حركتنا نحن أبناء العرب، كل الرجال هنا يرتدون الملابس الأوروبية حتي سكان القرى، «وسانجا» - السائق الذي يقلني إلى مسكني - حريص على ارتداء بذلات كاملة ووضع رباط العنق دائمًا، في الشارع التنزاني ترتدي النساء كل أنواع الأزياء، من الميني چيب إلى النقاب الإسلامي، لكن لا أحد هنا يعاكس أو يتحرش بالمرأة، النساء هنا لهن وجود فعلي في الشارع، يركبن الموتوسيكل ويركبن الدراجة ويشاركن في العمل مثل الرجال، ذات صباح رأيت فتاة ترتدي نقابًا أسود وتركب دراجة هوائية، ورأيت مرة جماعة من النساء يحفرن ترعة بالفئوس، وقد جلس على مقربة منهن رجل يراقب عملهن. يبدو أنه المقاول أو الخولي، ومن المألوف أن ترى في هذه البلاد جنديات يدخلن إلى الكافتيريا لتناول الإفطار تتقدمهن

سيدة هي الشاويش أو الضابط المسئول عنهن، أما شرطة المرور فأكثرها من النساء.

❀ ❀ ❀

في المستشفى الذي أعمل به توجد غرفة عمليات شيدتها إيطاليا، وكذلك توجد أجهزة أشعة جيدة زودتهم بها إيطاليا أيضًا، وبالإضافة إلى الأطباء المصريين، يوجد خمسة أطباء صينيين، وممرضتان من بلچيكا جاءتا للعمل لمدة سنة واحدة في إطار تبادل الخبرات مع إفريقيا.

اكتشفت أن معظم القوى العاملة من التنزانيين ليسوا أطباء من خريجي كلية الطب، ولكنهم حاصلون على درجة مساعد طبيب، الدكتور «متشالو» الذي يعمل في قسم الصدر هو أحد القلائل الحاصلين على بكالوريوس الطب، هو أكبر مني سنًّا، ولكنه ليس حاصلاً على درجة التخصص في الصدر، وذلك ما يجعله تحت رئاستي من الناحية الفنية، لكنني أنا وهو تجاهلنا هذه النقطة. «متشالو» رجل شديد الأدب واسع الثقافة، زودني بمعارف مهمة عن الديانة الإفريقية التي يدين بها قرابة عشرين بالمائة من أهل تنزانيا، تلك الديانة التي احترت في فهمها فقال لي «متشالو»: إن أكثر الذين يدينون بهذه الديانة يسجلون أنفسهم كمسيحيين، ولذلك فإن الإحصائيات تقريبية وليست دقيقة، حماس «متشالو» في الدفاع عن الديانة الإفريقية جعلني أعتقد أنه أحد المؤمنين بهذه الديانة.

الناس هنا لا يرفعون أصواتهم كما نفعل نحن أبناء العرب، ففي أول مرة رفعت صوتي في المستشفى غاضبًا بسبب الإهمال الذي أدى إلى وفاة أحد المرضى، استبد العجب بجميع العاملين، أولاً لرفع صوتي، وثانيًا لأني طالبت بالتحقيق فيما اعتقدت أنه إهمال جسيم بحق المريض، يبدو أني طالبت بإجراء غير مألوف، فقد بدا ما طلبته كأنه اعتراض على نواميس الطبيعة وأحكام القضاء، الناس هنا اعتادوا الاستجابة للقضاء والقدر دون نقاش، فيما بعد علمت أنه لا توجد بالمستشفيات شئون قانونية للتحقيق مع الموظفين، وإنما يتم إنذار الموظف إن هو أخطأ، فإن تكرر الخطأ فإنهم يقومون بفصله من العمل، أما الموظف المجتهد فإنهم يكافئونه بمضاعفة الراتب، أنظمة أوروبية تناسب واقعًا متقدمًا، يتم زرعها زرعًا في العالم الثالث، والنتيجة النهائية لهذا النظام هو الفساد الذي يميز كل الأجهزة الإدارية في عالمنا الثالث، قلة فاسدة لا تعمل وتحصل على كل الامتيازات الإدارية، وبدلات مالية

مقابل الجهود غير العادية، وكثرة ساخطة محبطة لا يمكن أن تتوقع منها إتقانًا أو إبداعًا، الرشوة هنا تتفشى بين الموظفين بشكل محسوس، والموظف الكبير الذي لا يطلب الرشوة يطلب الهدية. لكن الابتسامة الواسعة لا تفارق وجوه الجميع، فالناس هنا في غاية الأدب، طوال سنوات إقامتي في تنزانيا لم أسمع صياحًا أو أشاهد شجارًا، الشباب يفسحون الطريق لكبار السن، والأطفــال ينحنون ويقدمون احترامهم بكلمة «شيكا-مو» وهي كلمة سواحلية تعني: أقدم احترامي، يقولها الصغير للكبير، وقد اعتدت وأنا في طريقي إلى المستشفى أن أمر بعدة أطفال، ما إن يشاهدونني على البعد حتى يقفوا صفًّا واحدًا قائلين باللغة الإنجليزية: صباح الخير يا سيدي.

أسـرار فصيلة البشـر

لا يفلت الزائر لمجتمع جديد من عقد المقارنات، لكن الصخب العقلي الذي أثارته تلك الانتقالة إلى المجتمع التنزاني، لم ينجح في محو السؤال الذي ألح عليَّ حينما شاهدت جمجمة الكائن المسمى «هومو-هابيلس» (وهي كلمة مركبة تعني الإنسان الماهر) في متحف التاريخ الطبيعي بدار السلام، لذلك ما إن استقر بي المقام في «دودوما» حتى شرعت في البحث عن أسرار هذا الكائن، وعن درجة القرابة التي تربط نوعنا الحالي به، لقد شهدت هذه المنطقة من العالم أول انعطافة باتجاه النوع البشري، وهذا ما كشفت عنه الحفريات، وقد انقرض هذا النوع من الكائنات ولم يبق منه إلا بعض عظامه وبعض الأدوات التي استعملها خلال حياته على الأرض، فأمَّا العظام فإنها سوف تكشف لنا تكوينه الجسماني وذلك ما سوف يعمل عليه علماء التشريح، وأمّا الأدوات فإنها سوف تقول كلامًا مختلفًا لعلماء النوع الإنساني «الأنثروبولوجي» وهو العلم الذي يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته. فالأدوات التي وجدت بجوار عظام الإنسان الماهر تعني أننا أمام أول كائن يفتح عينيه كي يلاحظ الطبيعة التي تحيط به ويتفاعل معها، وها هو قد أمسك في يده ببعض من قوى الطبيعة وقد شرع بالفعل في تطويعها واستخدامها، أي أنه امتلك العقل الذي يصنف ويفرز ويميز، ليبدأ رحلته الطويلة في التفاعل والسيطرة على مادة هذا العالم وتسخيرها لمنفعته، العقل القادر على البحث والتمييز والتعرف على الصفات هو ما أعطى هذه الفصيلة من الكائنات صفاتها البشرية.

بالعودة إلى المصادر اكتشفت أن منطقة «أولدفاي چورچ» التي تقع في شمال تنزانيا تعرف بأنها حاضنة أو مهد الجنس البشري (The Cradle of Mankind). إذ تعتبر تلك المنطقة متحفًا طبيعيًّا لتطور النوع الإنساني عبر الزمان، ففي عصور ما قبل التاريخ كان في ذلك المكان بحيرة كبيرة عاش على شواطئها أنواع شتى من الكائنات، وكان بالقرب من البحيرة بركان يثور على فترات زمنية متباعدة ربما تصل إلى مئات الآلاف من السنين، فإذا سقط الرماد البركاني على الكائنات دفنها وحفظها من البلى، وإذا بردت المنطقة عادت الكائنات تسعى بجوار البحيرة، ثم إن البحيرة قد ردمت وصارت بلقعًا صفصفًا بسبب التغيرات الچيولوچية وتراكم ثورات البركان. ولكن منذ نصف مليون

سنة ضرب زلزال عنيف المنطقة، ويبدو أنه كان من الشدة بحيث حول مجرى نهر صغير من الأنهار المحلية التي تكثر في تنزانيا، فاندفعت مياه النهر وأخذت تنحت في الترسبات البركانية للبحيرة المردومة، فباحت الأرض بأسرار كتمها الرماد البركاني منذ ملايين السنين، فإذا شواطئ البحيرة القديمة تتكون من سبع طبقات رئيسية تحتوي أقدمها على كائنات عاشت هنا منذ أكثر من مليونين ونصف مليون سنة.

أما أسرة «ليكي» فهي نموذج آخر لأسرة تخصصت ونبغت وارتبطت بمنطقة «أولدفاي»، فأنجزت في علم الأنثروبولوچي، أما رب الأسرة فهو «لويس ليكي» الذي ولد في كينيا، لأبوين يعملان بإرسالية تبشيرية قرب نيروبي، ونشأ وسط قبيلة كيكويو الإفريقية كواحد من أفراد القبيلة، وحينما ذهب إلى كمبردچ للدراسة سنة 1922 تخصص في دراسة الأنثروبولوچي،في وقت ساد فيه اعتقاد بين العلماء أن الإنسان ظهر أولاً في آسيا ثم هاجر إلى إفريقيا، إذ إنه اعتبارًا من سنة 1890، كان قد تم التعرف على الهيكل العظمي للإنسان المسمى (Homo-erectus) الذي وجد في منطقة ترينل بجزيرة جاوة الإندونيسية، وعرف باسم إنسان جاوة. لكن المشكلة فى إنسان جاوة أنه كان قريبًا من الإنسان الحديث في تكوينه التشريحي بعيدًا عن الـ Great apes أولئك الأسلاف الذين تطور منهم فرع يضم القردة بأنواعها وفرع آخر تسلسل منه الجنس البشري، وعلى ذلك ظلت هناك حلقة مفقودة تفصل إنسان جاوة عن أصوله العليا. لكن «لويس ليكي» كان لديه اعتقاد لا يتزحزح أن الإنسان الأول ظهر في إفريقيا، وعلى ذلك عاد إلى إفريقيا بعد أن أنهى دراسته في كمبردچ وأخذ يحفر في مناطق عديدة بحثًا عن دليل يؤكد نظريته، ولكنها لفتت إليه أنظار علماء الحفريات عندما نشر نتائج أبحاثه، فحصل على تمويل للحفر في منطقة «أولدفاي» شمال تنزانيا التي

كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى الشهرة بعد أن تم العثور فيها على جمجمة كاملة لإنسان العصر الحديث (Homo sapiens)، وقد وصل إليها «ليكي» سنة 1931 حيث أجرى أبحاثًا على المنطقة التي عثر فيها على الجمجمة، وأعلن أن هذه الجمجمة تعود إلى أقدم إنسان حديث في إفريقيا وربما في العالم، لكن العلماء شككوا في هذا الاستخلاص، وجاءت الفحوصات لتؤكد أن العظام التي وجدت في منطقة «أولدفاي» ليست بهذا القدم، مما اضطر «لويس ليكي» إلى التراجع في استنتاجاته متحملاً ما يترتب على ذلك من تشكيك في مصداقيته العلمية، وقد حاول استعادة سمعته فاستغرق في الحفر وحقق بعض الاكتشافات، ولكن الحرب العالمية الثانية أربكت خططه، وبعد انتهاء

الحرب عاد إلى «أولدفاي» سنة 1950 مصطحبًا زوجته الثانية ماري التي تزوجها سنة 1938 بعد أن طلق «فريدا» زوجته الأولى.

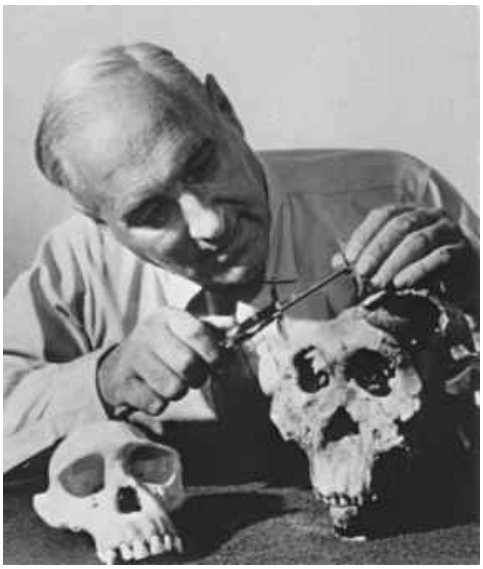

لويس ليكي

ماري ليكي

وكانت ماري شغوفة بالدراسات الأنثروبولوچية منذ أن اطلعت وهي طفلة على رسومات البدائيين في كهوف فرنسا، وإن لم توفق في دراسة أكاديمية منتظمة، وبناء على هذ الشغف كان من السهل عليها أن تتحمل شظف العيش في كوخ في منطقة «أولدفاي»،وهكذا عاشت عائلة «ليكي» فيتلك المنطقة من تنجانيقا تحفر وتنجب البنين والبنات، لكن الحفر لم يتمخض إلا عن اكتشاف بعض الأدوات الحجرية التي لم تحل المشكلة، وإن كانت زادت من اقتناع الزوجين بأن هذه الأدوات لابد أن يكون وراء صناعتها إنسان ماهر،

جمجمة الإنسان الأول «هومو هابيلس» - متحف دار السلام.

تكنولوجيا الحجر كما شطفتها يد الإنسان الماهر

فالبعرة تدل على البعير، حتى جاء عام 1959 وفيه عثر «لويس» على هيكل عظمي اعتقد أنه الإنسان الماهر، وأعطاه الاسم العلمي (Zinijanthropus boisei): عرض نتائجه تلك على الكونجرس الرابع لعلماء ما قبل التاريخ، فأحدث هذا الاكتشاف دويًّا عالميًّا، ولكن الأبحاث والنقاشات التي أدارها علماء ما قبل التاريخ أثبتت أن ما وجده «لويس» ليس الإنسان الماهر القادر على صناعة

أدوات حجرية، وأنه لا ينتمي لأشباه البشر وإنما ينتمي إلى الـ «Apes» وأعطوه الاسم العلمي (Australopithecus boisei) وقد ساعد هذا الخلاف الحاد بين «لويس» والعلماء على الإعلاء من شأن وشهرة عائلة «ليكي»، فانفتح أمامهم الدعم المالي الذي مكنهم من المزيد من الاستكشاف في منطقة «أولدفاي»، وفي عام 1960 عثر «جوناثان» الابن الأكبر لماري ولويس على الفك السفلي للإنسان الماهر (هومو هابيلس) فاستمر الزوجان في الحفر في تلك المنطقة حتى عثر «لويس» عام 1962 على جمجمة ذلك الكائن الأسطوري في أسفل طبقة من طبقات «أولدفاي»، كذلك عثرت «ماري» على الأدوات الحجرية التي صنعها ذلك الإنسان الماهر، والتي تقبع الآن في متحف «أولدفاي» بتنزانيا، وبذلك أمسك «ليكي» بالحلقة المفقودة وأثبت أن التحول إلى النوع الإنساني بدأ في إفريقيا، وبهذا الكشف سجل «لويس» نفسه كأعظم عالم في الأركيولوجي، وحقق حلمه الذي عاش من أجله وهو إثبات الأصل الإفريقي للنوع البشري، ثم لم تمض عشر سنوات على هذا الإنجاز العظيم حتى توفي «لويس ليكي» سنة 1972، أما ما كان من أمر «ماري ليكي» فقد طال عمرها وتواصلت اكتشافاتها حتى وضعت يدها على آثار أول خطوات بشرية مشت هنا منذ ملايين السنين في منطقة «ليوتالي» القريبة من «أولدفاي»، ثم إن الشيخوخة أقعدتها فانتقلت إلى كينيا تقضي ما بقي لها من أعوام، حتى توفيت في نيروبي عام 1996 وهناك دفنت، بعد أن حفرت اسمها في سجل المجد.

❀ ❀ ❀

لم يكن اكتشاف الإنسان الماهر «الهومو هابيلس» هو مجرد اكتشاف مثير يغطي الحلقة المفقودة في سلسلة التطور البشري، ولكن الأكثر إثارة كان اكتشاف أدوات حجرية صنعتها يد ذلك الماهر، ذلك لأن صناعة أداة العمل تعني أن الإنسان بدأ ينفصل عن المملكة الحيوانية وشرع يفكر، ويزيد من قدرته كي يسيطر على البيئة المحيطة به، لكنه لا يستطيع أن يفكر في العالم المحيط به بدون معرفة تجريبية تزوده بصفات مادة هذا العالم، وهو ما يعني أن يد الإنسان وحواسه قد بدأت تتخذ صفاتها الإنسانية، فاليد لم تعد عضوًا للتسلق فقط، وإنما لتجريب واختبار مادة البيئة المحيطة، ونقل تلك المعلومات إلى العقل لتوظيف النافع منها، والعين لم تعد تبصر فقط، وإنما أصبحت تلاحظ وتقارن وتميز، فقد صارت عضوًا تجريبيًّا يرتبط بالعقل،

ولتوضيح علاقة العقل بالحواس سوف أستعير مثلاً من زماننا فأقول: لو أنك أطلعت رجلاً غير متخصص في الطب على تخطيط القلب ECG فإنه يستطيع أن يرى صورة الرسم جيدًا، ولكنه لا يستطيع أن يفهم دلالة الخطوط، لأن عقله لم يحط علمًا بما تعكسه من صفات لعمل عضلة القلب، فالعقل المجرب هو الذي يرى، والعين هي أداة توصيل تكتسب معناها الإنساني حينما ترتبط بالعقل المجرب، فالعالم إذن له وجود موضوعي، وهذا الوجود الموضوعي سابق على علمنا به، فالفكر الإنساني لا يتشكل في الفراغ والعدم، ولكنه ينشأ ويتطور بمقدار ما يعي ويستوعب ويتفاعل مع مادة هذا العالم، لكن الفكر أيضًا يؤثر في مادة العالم فهو يعيد تشكيلها وتوظيفها وتسخيرها لمصلحته، وقد رأينا كيف فهم الإنسان الماهر صفات الحجر، وكيف هذبه فصنع منه سكينًا للصيد والقتال، فالعلاقة بين المادة والفكر هي علاقة تأثير متبادل، يقول بذلك أصحاب المذهب المادي الذين يطلقون على هذا التأثير المتبادل اسم (ديالكتيك)، أما أصحاب المذهب المثالي فبعضهم يتطرف فينكر تمامًا الوجود الموضوعي للمادة، ويفسر ما نملكه من وعي بهذه المادة بأنه مجرد تصورات صورتها لنا عقولنا، حتى إن القديس «أوغسطين» الذي سادت فلسفته طوال العصور الوسطى أنكر الحركة تمامًا، فنحن لا نتحرك ولا نفعل شيئًا، إنما نحن نتوهم ذلك، حتى جاء «كانط» وهو فيلسوف مثالي فاعترف بالوجود الموضوعي للعالم، ولكنه شكك في صحة إدراكنا له بشكل صحيح، فالإدراك يتم عبر الحواس، والحواس قد تخدع، وقد افترض أن ما تنقله الحواس يستقبله العقل عبر نماذج ثابتة لديه وجاهزة سلفًا، فالعقل يقوم «بتستيف» وترتيب ما تنقله الحواس في نماذجه معطيًا (أي العقل الإنساني) لهذه الإشارات تفسيراته الخاصة، فمادة العالم عند «كانط» لها وجودها الموضوعي، لكن وعينا بها ليس وعيًا موضوعيًّا، لكن ما لنا نحن وجدل الفلاسفة الذي قد يلهينا عما نحن فيه من فرجة في متاحف تنزانيا التي شكلتها الطبيعة عبر مليوني سنة كتلك التي في منطقة «أولدفاي چورچ»، أو تلك التي رتبتها يد الإنسان الحديث اعتبارًا من سنة 1940 في متحف التاريخ الطبيعي بدار السلام، حيث قام العلماء برسم صور تقديرية للبيئة الاجتماعية التي عاش فيها النوع البشري المنقرض بجوار جماجمهم وهياكلهم العظمية التي تنتصب في شموخ.

❀ ❀ ❀

ولكن السؤال الذي يبرز مع هذه الصور هو: إذا كان الإنسان الأول قد بدأ يتفهم خصائص المادة، فلابد أنه قد أطلق عليها رموزًا، هذه شجرة وهذا ماء، هذا صيد وهذه فاكهة، وإذا كان قد بدأ يفكر فلابد له من استخدام هذه الرموز، لأن العقل يحول تجاربه مع المادة المحيطة إلى رموز لغوية لها دلالتها، هذا نافع وهذا ضار، هذا ساخن وهذا بارد، أي لابد أن الإنسان الأول قد امتلك رموزًا لغوية، ومادام قد امتلك شكلاً بدائيًّا من التنظيم الاجتماعي فكيف كان يتواصل، كي ينسق وعيه التجريبي مع فصيله الاجتماعي، فهل امتلك لغة يتكلم بها؟ وما هي الأدلة التشريحية التي باحت بها الحفريات التي حصلنا عليها؟ وماذا كانت لغته؟

❀ ❀ ❀

استمرت أبحاث «لويس ليكي» على أحفورة «الهومو هابيلس» لأكثر من سنتين، ثم تتالت الاكتشافات التي أعطتنا ملامح هذا الجد الأعلى للنوع البشري الذي ظهر منذ 2.4 مليون سنة ثم اختفى منذ 1.6 مليون سنة، فقد أظهرت الأدلة التشريحية أنه كان قصيرًا، وكانت يداه طويلتين بالنسبة إلى باقي جسمه مقارنة بالإنسان الحديث، كما أن مخه كان أكبر من مخ القردة، ولكن قدميه القصيرتين وعدم امتلاكه لجهاز تعرق متطور، فضلاً عن بعض الاختلافات في الجذع والقناة التناسلية جعلته أقرب في تقدير بعض العلماء إلى صنف القردة منه لصنف البشر، ولكن ما أدهش العلماء في (homo habilis) هو التطور المعرفي لهذا الكائن، فقد عثر الزوجان «ليكي» على أدوات حجرية مشطوفة بدت مثل السكاكين، وقد أثبتت الأبحاث أن الحافة المشطوفة لهذه الأحجار والتي تبلغ حوالي 10سم، ليست من فعل الطبيعة وإنما من صنع هذا الكائن، ،وأنها من الحدة بحيث يمكن بها سلخ حيوان، كذلك لاحظ العلماء أن هذا الكائن قد امتلك نظامًا صوتيًّا بدائيًّا Voice box أكثر تطورًا من بقية الحيوانات، وإن كان أقل تطورًا من القدرات الصوتية للإنسان الحديث، هذه الإمكانية أعطته قدرة أعلى على التنسيق الجماعي من أجل صيد الحيوانات؛ أي أنه بدأ يشكل مجتمعًا يعتمد على تقاسم أو تقسيم العمل.

تعود أهمية اكتشاف الزوجين «ليكي» لهذا الكائن إلى أن معظم الهياكل العظمية لمراحل التطور الإنساني حتى ذلك الوقت كانت قد اكتشفت في قارة آسيا مما جعل العلماء يعتقدون أن النوع الإنساني ظهر لأول مرة في قارة آسيا ثم هاجر إلى إفريقيا، على عكس ما افترض العالم تشارلز دارون

الذي أسس لنظرية النشوء والارتقاء والذي افترض ظهور الإنسان الأول في إفريقيا، ولكن كل حفريات آسيا كان ينقصها حلقة تربط الإنسان بأسلافه من الرئيسيات، حتى جاء الـ (Homo habilis) كي يغطي هذه الحلقة المفقودة ويعيد الاعتبار لافتراضات داروين، أما وجود الآلات بجوار (Homo habilis) فقد أعطته رقيه الإنساني، إذ إن جميع الكائنات تعيش تحت شروط الطبيعة، وتخضع دون جدل لشروطها، فهي إن وجدت الأكل أكلت، فإن لم تجد ارتحلت بحثًا عنه، أما النوع الإنساني فإنه يعمل ضد تلقائية الطبيعة، فالإنسان يمد يده في جوف الأرض يستخرج المعادن ويشفط الطاقة، وهو يحطم الجبال ويصنع من صخورها مدنًا، وهو يركب الهواء ويطير بلا أجنحة، وفي السكين الحجري الذي عثر عليه الزوجان «ليكي» أول دليل على العمل الإنساني الذي يستند على فهم خصائص مادة هذا العالم. ولذلك أطلق عليه «لويس ليكي» لقب الإنسان الماهر. لقد ظهر على الأرض الكائن المفكر، وها هو يتطور أمامنا، متفاعلاً بعقله ويديه مع مواد البيئة المحيطة به، وها هو يقوم بتأسيس مجتمعات تقوم على تقسيم العمل، وتبادل وتوارث الخبرة، أي أنه سوف يقوم بمراكمة المعارف وتوريثها لنسله، ليبدأ الجيل الجديد من حيث انتهى الجيل القديم، وهو ما سوف يؤدي في النهاية إلى تطور هذا الكائن.

وبينما تعيش بقية كائنــات الأرض في جماعات تستجيب لشروط الطبيعة دون أن تملك الإرادة أو الإمكانية لتغييرها، فإن النوع البشري قد أصبح هو الوحيد القادر على مواجهة الطبيعة ومحاولة السيطرة عليها، وسوف تفتح عليه تلك المواجهات أشكالاً من التحديات تؤدي إلى تطويره تشريحيًّا وفسيولوجيًّا وذهنيًّا، بشكل يجعله يضع تصورًا لوجوده في الحياة، وسوف يبني على هذا التصور الوجودي أنظمته الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية على النحو الذي نراه في مجتمعاتنا الحالية، فإذا رجعنا إلى بحيرة «أولدفاي» في شمال تنزانيا، فسوف نجد الهوموهابيلس، يعيش على ضفاف تلك البحيرة مع غيره من الكائنات، عاري البدن يلتقط الثمار ويصطاد صغار الحيوانات فيمزقها بسكينه الحجري ويأكلها نيئة، فحتى ذلك الوقت كان ذلك الكائن يخاف من النار ولا يعرف كيفية السيطرة عليها، ثم إنه لا يستطيع تشريحيًّا استخدام لسانه في الكلام، صحيح أن صندوق الصوت الخاص به قد بدأ رحلته في النزول إلى الزور، وذلك ما يعطيه قدرات صوتية أعلى، ولكن رحلة صندوق الصوت، واشتراك اللسان في الكلام سوف تستغرق حوالي مليوني سنة، أي أن ذلك الكائن سوف ينقرض قبل أن ينطق كلمة واحدة، وقصارى ما استطاعه خــلال حياتــه على الأرض، هو الصراخ والصفير

وتحريك اليدين في الإشارة والتواصل مع باقي أفراد جماعته، ولأن مركز الصوت Wernicke's area يقع في الفص الأيسر من المخ، فإنه يسيطر أكثر على الجزء الأيمن من البدن، نظرًا لانعكاس الأعصاب التي تربط المخ بالأطراف، هذا يعني أن ذلك الكائن لا يزال يستعمل إشارات يديه بشكل أساسي للتواصل مع باقي أفراد جماعته، وإن كان قد بدأ يقرن إشارة اليد بإحداث صوت يصدر عن جهازه الصوتي الذي لا يزال قيد التطوير، لكنه أثناء إصدار الصوت يكون متحكمًا أكثر في القسم الأيمن من جسمه نظرًا لظاهرة انعكاس الأعصاب بعد خروجها من المخ كما أوضحنا، لذلك فإنه أثناء ربط الصوت مع إشارة اليد سوف يظهر ذلك الكائن تفضيلاً لاستخدام اليد اليمنى أكثر من اليد اليسرى، وهذا ما يفسر أن 90٪ من بشر هذا الزمان يستعملون اليد اليمنى أكثر من اليسرى، وهذا ما سوف يفسر ظهور الأيمن والأعسر لأول مرة بين الكائنات التي تسكن الأرض، وتلك خاصية ينفرد بها النوع الإنساني فقط، وتلك نقطة أثارت جدلاً بين العلماء، إذ استنتج العلماء الأمريكان من مراقبة سلوك الشمبانزي في حدائق سان فرانسيسكو، أنه يفضل استخدام اليد اليمنى على اليسرى بنسبة الثلثين إلى الثلث، ولكن العالمين ماكجروا ومارشانت قاما بمراقبة سلوك الشمبانزي في بيئته الطبيعية شهورًا في جبال ماهالي في تنزانيا، وفي عام 2001 أذاعا نتائج أبحاثهما، وقد جاء فيها أن الشمبانزي لا يظهر تفضيلا لاستخدام اليد اليمنى في الحياة البرية، أي أنه يستخدم كلتا يديه بالتساوي، وقد فسر العلماء ذلك بأن الشمبانزي الذي يعيش أسيرًا في الأقفاص يميل إلى تقليد البشر في تفضيل استخدام اليد اليمنى، وبالتالي فإن نتائج أبحاث علماء سان فرانسيسكو هي نتائج لا يمكن الاطمئنان إليها، بالإضافة إلى أن الجهود التي بذلت لتعليم الشمبانزي النطق والتحكم في الأصوات قد فشلت جميعها، لأن مخ الشمبانزي لا يملك السيطرة الإرادية على عملية إصدار الأصوات، وعلى ذلك استخلص العلماء أن النوع البشري هو الوحيد القادر على التحكم الإرادي في إصدار الأصوات وتلوينها، وهو الوحيد القادر على تطوير نظام للإشارات الصوتية (الكلام) للتواصل بين أفراده.

الشمبانزي إذن يطلق بعض الصرخات التي تحمل دلالات معينة، كأن يصرخ مثلاً محذرًا عائلته من ظهور الثعبان، لكن هذه الصرخة تصدر بشكل تلقائي، أي أنه لا يستطيع منعها أو تلوينها، لأن لكل صرخة دلالة خاصة، أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذي يستطيع التحكم في أقواله، أي أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يكذب.

❀ ❀ ❀

قلنا إن الحفائر قد حفظت لنا صورة تشريحية لهذا الجد من فصيلة «الهومو هابيلس» - الإنسان الماهر - الذي كان قصير القامة، طويل اليدين، قصير الفخذين، وتلك صفات تشريحية تجعله غير قادر على المشي لمسافات طويلة، وتجعله مضطرًّا إلى العيش بجوار البحيرات والأنهار، ولكن مع تكاثر هذا النوع من أشباه البشر، ومع تزاحم غيره من الوحوش حول تلك الأماكن سوف يواجه هذا الكائن ضيقًا في الرزق، مما يجعله يتطلع إلى غابات السافانا الشاسعة الممتدة في وسط إفريقيا، وفيها ما يشتهي من أرانب برية وغزلان وماعز وخرفان، وعلى ذلك أخذ يسعى في مناكبها ويسرح في غاباتها، وقد استمر يمشي قرابة المليون سنة فاتسعت خطواته، وطالت عظمة الفخذ لديه، ولأنه لم يعد يستخدم يديه في «الشعبطة» على الشجر، فقد قصرت يداه، ومع تراكم هذه التغيرات التشريحية، أصبحت الملامح العامة لشكله قريبة من الإنسان الحديث، لنجد أنفسنا بعد مليون سنة أمام كائن أكثر تطورًا وتجاوبًا مع الطبيعة أطلق عليه العلماء اسم (الهومو-إرجاستر) وهي كلمة تعني الإنسان العامل، نظرًا لنوعية الآلات الحجرية التي اكتشفت بجواره، والتي تتراوح بين فئوس وسواطير حجرية، وهنا يجب التنبيه إلى أن التطور التشريحي والفسيولوجي لأي كائن هو حصيلة تفاعل مع البيئة المحيطة، يتراكم عبر قوانين الاستخدام والإهمال وعبر ظهور الطفرات، ليؤدي في النهاية إلى تحول كيفي، وأن ظهور حلقة جديدة من التطور لا تعني بالضرورة اختفاء الحلقات السابقة، فقد تعايش النوع القديم من الهومو هابيلس، مع النوع الجديد من الهومو إرجاستر لفترات طويلة.

عمومًا فإن أكثر العلماء يتفقون على أن الكائن المسمى الهومو إرجاستر لا يشكل حلقة مستقلة في التطور، ولكنه عبارة عن الأجيال أو الفصائل الأولى من أطول حلقات التطور البشري، والتي يطلق عليها اسم (الهومو إريكتس) أي الإنسان المنتصب الذي وقف على قدميه بشكل نهائي ولم يعد يقفز بين الأشجار أو يتعلق بفروعها، وقد بدأت تلك الأجيال الأولى في الظهور على الأرض قبل مليوني سنة، ونظرًا لأن شواطئ البحيرات لم تعد تتسع للمزيد من زحمة الكائنات فقد مشى هذا الكائن يمينًا وشمالاً حتى وجدت له بقايا عظمية في تنزانيا وكينيا وإثيوبيا وجنوب إفريقيا، ومن المحتمل أن يكون قد وصل إلى مصر،

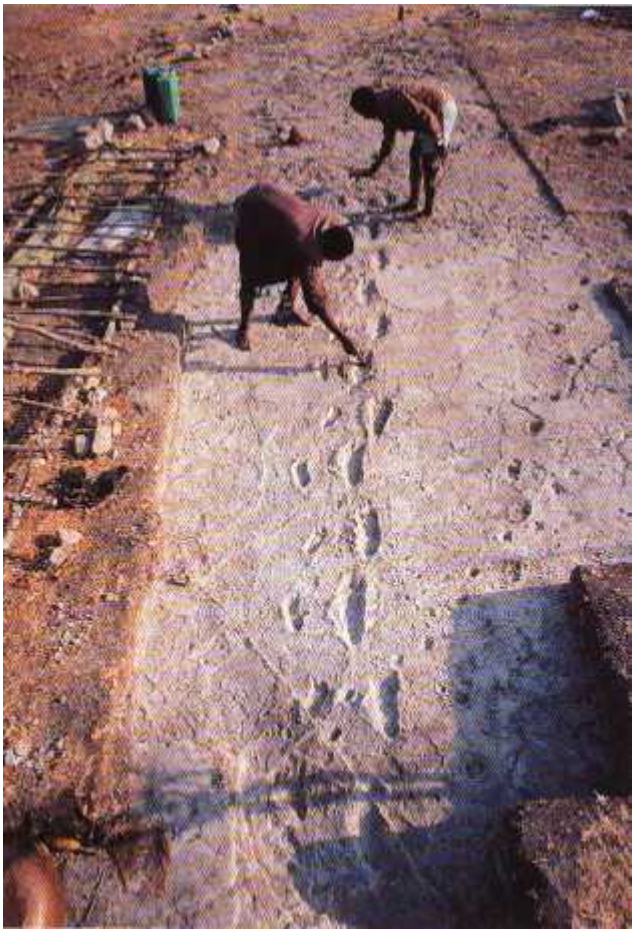

الخطوات الأولى للبشر على سطح الأرض (الأثر لرجل وامرأة وصبي).

فقد نقلت جريدة المصري اليوم في17/8/2007 تصريحًا للدكتور زاهي حواس قال فيه: (إن بعثة المجلس العاملة في سيوة كشفت عن بصمات للإنسان الأول، من المحتمل أن يكون عمرها مليوني سنة)، مشيرًا إلى أنه يجري حاليًّا تحليل عينات من النبات المتحجر في الصخور، للتأكد من عمر الكشف الأثري. وأضاف: (لو ثبت أن عمر هذه البصمات مليونا سنة فسيكون هذا أقدم موقع أثري على وجه الأرض، مما يدل على أن الإنسان في مصر سبق الإنسان في العصور التاريخية الأخرى في كل أنحاء العالم) موضحًا أن هذه البصمات لقدم إنسان ما قبل التاريخ حفرت على طبقة طينية رملية جفت مع الزمن. وأشار حواس إلى أنه شكل أخيرًا إدارة جديدة لآثار ما قبل التاريخ برئاسة خالد سعد، تعمل حاليًّا على تسجيل المواقع الأثرية، التي ترجع لعصور ما قبل التاريخ (ورغم عدم الدقة العلمية التي شابت تصريحات حواس، لأنه لو صح أن عمر هذه البصمات يعود إلى مليوني سنة كما أورد الخبر، فإنها لا تعطينا أقدم موقع أثري على وجه الأرض، إذ إن العلماء متفقون على أن أقدم

أثر للأقدام البشرية، هو ما اكتشفته العالمة «ماري ليكي» في منطقة ليوتالي شمال تنزانيا، ففي سنة 1978 اكتشفت ماري وفريقها آثار

صورة تقديرية تخيلها الفنان توضح الرجل والمرأة وخلفهما الصبي
وهم يمشون قبل أن تدهم الحمم البركانية آثار أقدامهم.

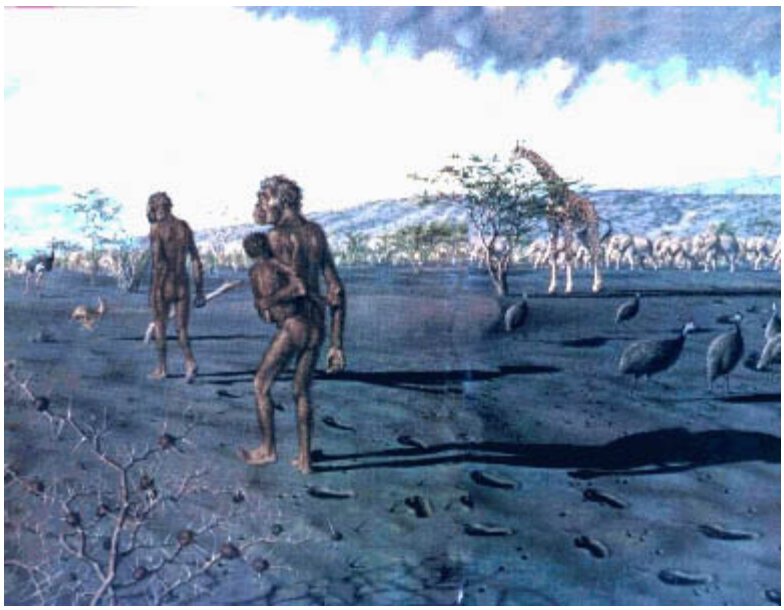

صورة تخيلية للأجيال الأولى
من النوع البشري

أقدام لطابور مكون من ثلاثة من أسلاف البشر، وذلك على بعد 45كم من منطقة «أولدفاي» التي تقع في شمال تنزانيا، وقد سقط رماد على هذه الآثار من انفجار بركان يقع على بعد 20كم، وقد أدى سقوط اللهيب البركاني إلى تحجر الأثر، وبدراسته وجد أن الأصبع الكبرى تعود إلى أسلاف الإنسان وليس إلى القرود، كما وجد بالقدم قوس عظمى يجعل وسطها مرتفعًا عن الأرض، وهو ما يميز النوع البشري، وقد أثبتت المحاكاة الكمبيوترية أن المجموعة كانت تسير بسرعة متر في الثانية، ويتكون هذا الطابور من ثلاثة أفراد، كان أحدهم حسب القياسات العلمية: طويلاً، والثاني أقصر، أما الثالث فقد كان صبيًّا يمشي في الخلف، وكان يدوس بقدميه على آثار أقدام والديه، ثم سقطت نيران بركان قريب على هذا الأثر فحفظته بكافة تفاصيلة، عمومًا فإن قول الدكتور حواس إن الإنسان في مصر سبق الإنسان في العصور التاريخية الأخرى في كل أنحاء العالم هو حماس شوفيني يفتقد الدقة العلمية، وقصارى ما سوف يقدمه هذا الكشف، الذي لم أقع على نتائج الأبحاث النهائية التي أجريت عليه، هو أنه يعطينا دليلاً إضافيًّا على أن هذا الكائن المشاء المسمى الهومو إرجاستر، قد مشى على ضفاف النيل سعيًا وراء رزقه من الطرائد والفرائس حتى وصل إلى واحة سيوة، وهو ما يتفق مع اعتقاد جمهرة علماء الأنثروبولوچيا، من أن الهومو إريكتس، الذي يشكل الهومو إرجاستر طلائعه الأولى، قد اكتشف كيفية السيطرة على النار، أي أنه لم يعد يخاف منها، وإنما أصبح قادرًا على إشعالها وإخمادها حسب الحاجة، وهو ما أعطاه القدرة على مواجهة التقلبات المناخية، والارتحال إلى أماكن أكثر برودة، وعبر عمره المديد الذي يزيد على مليون ونصف المليون سنه ، ارتحل هذا الكائن ليس فقط إلى أطراف إفريقيا، بل إلى آسيا وأوروبا، حيث وجدت له حفريات عديدة في هذه الأماكن، وقد اعتقد العلماء لفترة أن الهومو إريكتس ربما ظهر في أكثر من موقع على الأرض في وقت واحد mutiregional theory لكن مع تطور البحث العلمي تراكمت الأدلة التي تثبت أن هذا النوع قد تطور من أصل واحد ظهر في إفريقيا، ثم هاجر إلى مختلف بقاع الأرض، وهي النظرية التي تسمى (out of Africa) والتي فسرها عالم الأنثروبولوچيا البريطاني كريس ستينجر بقوله (كلنا إفريقيون تحت الجلد).

عمومًا فقد وصل النوع البشري إلى الحلقة الثانية من تطوره، وأصبح يسمى الهومو إريكتس، وقد عرف هذا النوع شكلاً من التنظيم الاجتماعي، فهو يعيش في مجموعات تقوم بالصيد الجماعي أحيانًا، وقد وجدت في تنزانيا أدلة على قيام هذا النوع من أشباه البشر باصطياد وأكل واحد من فيلة الماموث المشعرة منذ 1’8 مليون سنة، ولابد أن ذلك الصيد السمين قد تم بالتنسيق بين مجموعة كبيرة من الهومو إريكتس، كذلك فإن الحفريات التي اكتشفت في الصين (إنسان بكين) قد كشفت عن دليل يشير إلى أن هذا النوع ربما يكون قد عرف أكل لحم البشر، ولكنه دليل وحيد لم يقبل به الكثير من العلماء، كذلك فإن تحليل إحدى الحفريات قد كشف أنها قد تعرضت لسلخ فروة الرأس، ويعتقد بعض العلماء أن ذلك ربما تم لأسباب متعلقة بممارسة الطقوس، وهنا أجد عسرًا شديدًا في القبول بهذا الرأي، فقد يكون مقبولاً أن هذا النوع من أشباه البشر قد مارس بعض الطقوس لاسترضاء قوى الطبيعة التي تصور أن لها هيمنة ما على حياته، ولكن تقديم ذبيحة بشرية وسلخ رأسها، هو سلوك يعكس درجة رفيعة من الإيمان بالميتافيزيقا، وهو ما أتشكك في أنه قد توافر لهذا النوع من أشباه البشر، فلا يزال الوقت مبكرًا على ظهور العقائد الروحية التي تعتقد بوجود أرواح أو آلهة تطرب للذبيحة البشرية، وبصفة عامة فإن الجدل الدائر في هذا الشأن ، والذي أتيح لي الاطلاع عليه، يقوم على افتراضات واحتمالات أكثر مما يستند على حقائق.

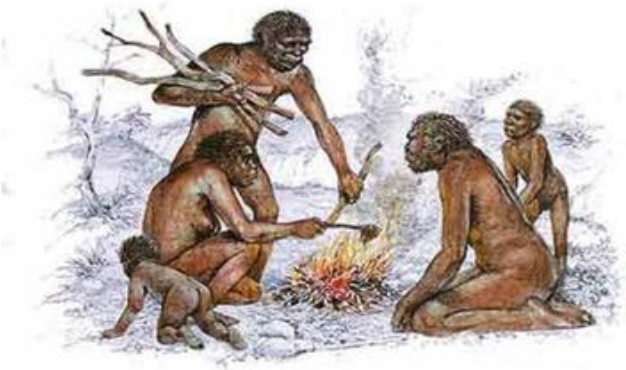

مجتمع الهومو إريكتوس
الذي اكتشف النار ولم يعد يخاف منها.

عمومًا فإن الجد من نوع الهومو إريكتس قد كبر مخه حتى وصل إلى ثلاثة أرباع مخ الإنسان الحالي، وقد عبر إفريقيا فوصل إلى آسيا وأوربا، لكنه قطع هذه الرحلة عبر الزمان والمكان عاريًا لا يستره شيء، فليـس لدينا دليل على أنه قد لبــس جلد الحيــوان أو ورق النبات، لكنه الآن يعرف كيف يشعل النار فيستدفئ بها، وقد يشوي فيها صيده من الحيوان، ولذلك لم يعد يخشى الترحال بعيدًا إلى المناطق الباردة، لذلك وجدت له حفريات تمتد من جاوة في إندونيسيا إلى بكين في الصين إلى جمهورية چورچيا، وباكتشاف النار وكيفية السيطرة

عليها، يكون الإنسان قد توصل إلى واحد من أعظم الاكتشافات في التاريخ، ذلك الاكتشاف الذي مكنه من الانتشار على سطح الأرض، والسيطرة على مصدر مهم من مصادر الطاقة الكامنة في الطبيعة المحيطة به.

أما من ناحية القدرة على الكلام، فقد تمكن من تطوير بعض الإشارات الصوتية، كي يتفاهم بها مع قومه، ولكن لسانه لم يشترك حتى الآن في تقطيع الوحدات الصوتية. فهو يتهته ويثأثئ ويلون صوته صفيرًا أو صراخًا، ويخلط كل ذلك بإشارات اليد وحركات من الرقص التعبيري الممزوج بالصراخ، والتي لا تزال بقاياها موجودة في رقصات القبائل الإفريقية حتى الآن، والتي أصابتني بالذهول حينما شاهدتها لأول مرة ذات مساء جميل قضيته في فندق الطاوس المطل على شارع بياتريس لومومبا بدار السلام.

كانت الطبول الإفريقية تأتيني من عمق الغابة مصحوبة بآهات وأنفاس الأسلاف تدغدغ البدن وتغسل الروح، وأمامي على المسرح الأولاد الذين يلبسون الريش ويضعون أقنعة الوحوش ويصرخون في انفعال، أما البنات فكن يتقافزن في رقصات غاية في الرشاقة والخفة، وذلك ما جعلني أغيب عن الزمان والمكان لأتوحد مع كل الكائنات التي عاشت هنا منذ مهد البشرية.

العــودة إلى البداية

خلال عملي في مستشفى «دودوما» العام، اكتشفت أن مرجريت التي تترجم لي من اللغة السواحلية إلى الإنجليزية، تعجز أحيانًا عن فهم لغة بعض المرضى وخاصة كبار السن، وقصارى ما تفعله أنها تميز المجموعة القبلية التي ينتمي إليها المريض من خلال السلاسل البديعة التي يرتديها الرجال والنساء على السواء، ومن خلال الأطواق الكثيرة والخروم الكبيرة التي يحدثونها في آذانهم، ثم إنها تبحث في المستشفى عن موظف ينتمي لنفس القبيلة كي يترجم لها فتترجم لي، فإن لم تعثر على مترجم انقطع الكلام، وارتددت أنا والمريض إلى لغة الإشارة التي كان يستخدمها أسلافنا من الرئيسيات، وبالبحث في هذه الظاهرة تبين لي أن بعض الناس قد عاشوا معزولين في الغابة التي وفرت لهم الاحتياجات الأساسية فلم يختلطوا بالتاريخ، ولم يسمعوا عن الوجود العربي ولا عن الاحتلال الألماني أو الإنجليزي، وهم لا يعرفون ما الوطن، وما الحدود، وما جوازات السفر، وقد استخدموا في التفاهم بينهم لغة محلية لم يسمع بها المجتمع الخارجي، ومن خلال التعامل معهم اكتشفت أنهم في منتهى البساطة والمودة واللطف، هؤلاء القوم من سكان المجتمعات المنعزلة لديهم كنز من الأنثروبولوچيا على مستوى التطور المجتمعي واللغوي وأدوات العمل وتطور الأزياء والمعتقدات الدينية، ولا أدري أين هي الجامعـات العربيـة، ولماذا لا ترسل دارسيها لاستكشاف ذلك الكنز؟ الجامعات ومراكز البحث الأجنبية ترسل دارسيها هنا باستمرار، لا يأتون للتبشير المسيحي كما يحلو لنا أن نعتقد وأن نردد، إذ إن معظمهم شبان في ميعة الصبا، وبنات أحلى من عسل بنها، أتوا من أمريكا وأوربا، لا علاقة لهم بالدعوة الدينية ولا يشغلون أنفسهم بها، وإنما ينتشرون في القرى، يعملون في مشاريع اجتماعية ويجمعون معلومات عن كل شيء في هذه المجتمعات، وقد أدهشني في أمر الأمريكان والأوربيين أن مستواهم المعرفي والمادي ليس رفيعًا كما كنت أتصور، وقد فهمت منهم أنهم أدوات بحث، وأن ما يجمعونه من معلومات وخبرات يصب في مراكز للبحث، حيث العقول المتخصصة التي تحلل المعلومات فتنتج المعرفة وترسم السياسات، فهم فريق عمل أوله في إفريقيا وآخره في أوربا وأمريكا.

وبالعودة إلى الجماعات المنعزلة في تنزانيا، والتي تستخدم نظامًا لغويًّا خاصًّا بها، سوف يتأكد لنا ما فرغ علماء الأنثروبولوچيا من إثباته وهو أن اللغة هي اتفاق عشوائي بين الجماعات البشرية، لأنها (أي اللغة) ليست إلا نظامًا للإشارات الصوتية، لا يمكن أن تكون مفهومة إلا بوجود اتفاق على المعنى بين من يرسل الإشارة ومن يستقبلها، فاليابانى مثلاً لا يستطيع التفاهم مع العربي؛ لأنه لا يوجد بينهم اتفاق على دلالة الكلمات المنطوقة، وتعدد اللغات يؤكد هذا المعنى، فالجماعات المعزولة التى عاشت في غابات في تنزانيا قد اصطلحت على نظام لغوي يلبي احتياجاتها الأساسية داخل المجموعة القبلية المحدودة التي تنتمي إليها دون الحاجة للتواصل مع العالم الخارجي.

لكن التطور الرأسمالي أخذ يدفع بالمجتمعات إلى المزيد من التخصص والتداخل، فالجماعات التي عاشت قرونًا طويلة منعزلة مكتفية بما تجود به البيئة المحيطة بها، معتمدة على الاقتصاد الطبيعي، بدأت في الذوبان شيئًا فشيئًا في المجتمع التنزاني، وذلك ما أدى إلى انقراض الكثير من اللغات المحلية التي تفقد قيمتها كوسيلة للتواصل عندما تشرع القبيلة في التعامل مع الأمة.

ذلك يفرض علينا أن نلقي مزيدًا من الضوء على مسألة اللغة كما بحثها أهل الاختصاص، فقد توصل العلماء إلى أن ظهور كائنات قادرة على إصدار أصوات قد تم منذ حوالي 170 مليون سنة، ولعل الضفدع الذي قفز من البحر إلى اليابسة هو من أقدم تلك الكائنات التي لاتزال تعيش بيننا ولا تكف عن النقيق، أما الصوت الذي تصدره تلك الكائنات فهو يتكون من وحدات تسمى «الفونيم»، ويقوم الكائن بضم عدد من تلك الفونيمات كي يشكل صيحة الفرح أو صرخة الرعب أو صفير الشجن أو نداء التكاثر، وقد دلت الدراسات اللغوية أن الإشارات الصوتية الأولية قد تطورت لدى مجموعة من الكائنات هي: الطيور والدلافين والقردة العليا، وأن ما يملكه الإنسان من وحدات صوتية لا يزيد على بضع عشرات فقط، تساوي تقريبًا ما تملكه تلك الحيوانات من وحدات صوتية، لكن الإشارات الصوتية قد توقفت عند تلك الكائنات عند مستويات أولية، لا تتجاوز صيحة الفزع، أو نداء التكاثر، أو صفيرًا يعبر عن جوع .. إلخ، أما الإنسان فقد استطاع أن يطور الإشارة الصوتية لتصبح كلمة، ثم جمع الكلمة على الكلمة فصارت جملة، ثم رتب الجمل ووضع لها قواعد فكانت اللغة.

اللغة.. تاريخ التطور البشري

ظهور اللغة بين النوع البشري يعني ظهور المجتمع البشري، فالإنسان لن يبتكر لغة كي يكلم بها نفسه، وكل الكائنات تعيش في جماعات تكفيها الصيحة والصفير، أما النوع البشري فإنه يعيش في مجتمع، وهو تنظيم رفيع يقوم على تنسيق وتوزيع العمل وتبادل الخبرات، ومع قيام المجتمعات زادت قوة الذراع البشرية زيادة رهيبة، فلم تعد ذراع رجل واحد، وإنما تم التنسيق بين أذرع العشرات لإنجاز عمل محدد، لقد انفصل الإنسان حضاريًّا عن الحيوانات، وها هو يكتشف القوة في التنظيم، وبهذا التنظيم يتأهب للسيطرة على الطبيعة وإخضاعها، واللغة وإن لم تكن أداة عمل مباشرة،لكنها تكمن وراء هذا التنظيم الاجتماعي. وعندما شرع العلماء فى دراسة عظام الإنسان الماهر «الهومو هابيلس» التي وجدت في تنزانيا، توقفوا أمام بعض الدلالات التشريحية التي استخلصوها من جمجمة ذلك الكائن:

1 - وجد العلماء أن صندوق الصوت الخاص بذلك الكائن قد بدأ ينزلق في تجويف الفم، صحيح أنه لم يصل إلى مستوى إنسان العصر الحديث، ولكن وجوده داخل تجويف قد جعله قادرًا على إصدار أصوات أكثر حدة ورنينًا من أصوات الرئيسيات أو الأسلاف ancestors الذين تفرع منهم هذا النوع البشري.

2 - اكتشف العلماء أيضًا أن منطقة بروكا Broca's area المسئولة عن التحكم الإرادي في الأصوات قد زاد حجمها لدى هذا الكائن البشري، وهو ما يعني زيادة قدرة هذا الكائن على التحكم الإرادي في الأصوات، وتلك ميزة ترفعه درجة فوق القرود، فحتى الآن فإن فصائل الغوريلا والشمبانزي التي تعيش في عصرنا الحديث، لا تستطيع التحكم الإرادي فيما يصدر عنها من أصوات، أصواتها هي ردود أفعال تلقائية لا تستطيع أن تتحكم فيها.

3 - لدى تخريب منطقة بروكا عند الإنسان لأي سبب مرضي فإنه يعجز عن الكلام، أما عند تخريب المنطقة المناظرة في مخ القرد، فإن قدرته على إصدار الأصوات لا تتعطل، وهذا دليل آخر يؤكد أن أصوات القردة هي ردود أفعال تلقائية لا تخضع للسيطرة الإرادية للمخ.

لكن الحقيقة أن الكلام البشري أشد تعقيدًا من ذلك؛ لأن صناعة الكلام يشترك فيها أكثر من عضو:

- هناك اللسان الذي يقوم بتقطيع الصوت، وبدراسة جمجمة «الهومو هابيلس»، وجد العلماء أن فتحة القناة التي يمر منها العصب (The hypoglossal nerve) الذي يتحكم في حركة لسانها لم يزد قطرها على تلك الموجودة لدى القرود، وهو ما يعني أن لسان هذه الفصيلة البشرية كان لا يزال عاجزًا عن الاشتراك في صناعة الكلام.

- هناك أيضًا الفقرات الصدرية من العمود الفقري (Theoracic region of the spinal cord)، فهذه المنطقة في إنسان العصر الحديث أكبر مما لدى القردة، وذلك من أجل تشغيل أكثر قوة وكفاءة لعضلات التنفس لكي تعوض الإعاقة التي يحدثها اللسان البشري بتقطيعه انسياب الهواء أثناء الكلام، وبدراسة عظام فصيلة الإنسان الماهر «هومو-هابيلس» وجد العلماء أن هذه المنطقة تماثل ما لدى القردة، وهذا دليل آخر على أن لسان هؤلاء القوم لم يشترك بعد في تقطيع الكلام.

ومعنى ذلك أن الإنسان في الحلقة الأولى من تطوره كان قادرًا على تلوين إشاراته الصوتية ارتفاعًا وانخفاضًا بشكل يفوق بقية الكائنات، وكان قادرًا أيضًا على إصدار هذه الإشارات أو حجبها متى أراد، ولمن أراد، ولكنه لم يكن قادرًا على تقطيع أجزاء الكلمة، بمعنى رص الوحدات الصوتية (الفونيمات) وتقطيعها بشكل يطول ويقصر؛ وذلك لأن لسانه كان ممسوكًا وخارج عملية إنتاج الصوت، وقصارى ما يمكن أن نستخلصه من لغة هؤلاء القوم، أنها كانت إشارات أكثر تنوعًا، ولكنها أقل من مستوى إنتاج الكلمة.

عمومًا.. فإن الأدوات الحجرية التي اكتشفت مع عظام هؤلاء القوم في منطقة «أولدفاي» في تنزانيا، تعكس معرفة تكنولوچية رفيعة لم يمتلكها غيرهم من الكائنات في زمانهم، ولا حتى تمتلكها القرود في أيامنا هذه التي قد تستخدم العصا في الضرب أو في التقاط الغذاء تقليدًا لسلوك البشر، ولكنها لا تملك القدرة على تصنيع وتشكيل أدوات العمل كما امتلكها ذلك النوع البشري الماهر. فقد كشف فحص هذه الأدوات أنها صنعت من أحجار البازلت أو الكوارتز، وهو ما يعني أن هذا الكائن قد لاحظ وجرب واكتشف الفروق النوعية بين صفات الأحجار ودرجة صلابتها، واستطاع تحويل حوافها إلى شفرات قاطعة. وقد أثبت الفحص بالميكروسكوب الإلكتروني أن تلك الأحجار قد جرى سن حوافها عن طريق الاحتكاك مع قطع صخرية أخرى، أما

الجزء الذي تمسكه يد هذا الكائن فقد بقي أملس، وبفحص العظام المهشمة للحيوانات التي وجدت في نفس الموقع، تبين أن القوم قد استخدموا أدواتهم تلك في كسر عظام الحيوانات، وشفطوا ما بداخلها من نخاع، ولأجل سلخ الحيوان وكسر عظامه سنوا السكاكين ذات الشفرات الحادة، فلم تكن أسنانهم ولا أظفارهم قادرة على قطع جلد الحيوان، وكل ذلك يتطلب معرفة بأنواع الصخور وخواصها وأثرها على جسد الحيوان.

1 - ولفهم وتبادل هذه المعلومات بين أفراد المجتمع كان لابد من ترميزها وتمييزها عن بعضها، إما بإشارة صوتية، وإما بالتعبير عنها من خلال حركات اليدين كما يحدث في التمثيل الصامت؛ ذلك لأن نظام عمل العقل البشري يجعله يستقبل المعلومة بشكل رمزي، ويتبادلها مع الآخر عبر نظام رمزي كالكلام أو الإشارة (مثلاً: الكتابة التي تقرؤها الآن هي نظام رمزي لنقل المعلومات إلى المخ البشري).

2 - لدينا أدلة تشريحية على تطور حدث في الجهاز الصوتي لهذه الحلقة المبكرة من التطور البشري، مما يعني أنهم تواصلوا بالصوت، لكن هذا المستوى من التطور التشريحي كان ينتج رموزًا صوتية محدودة لا تتناسب مع تكنولوچيا الحجر التي أنتجها هؤلاء القوم؛ مما يعني أنهم اعتمدوا على إشارات اليدين التي هي الأصل والأساس في التواصل مع تنويعات محدودة من الأصوات.

❀ ❀ ❀

ما دام قد ثبت للعلماء أن هذا الكائن قد صنع أدوات للعمل، فمعنى ذلك أنه قد بدأ يدرك خصائص المادة المحيطة به وأخذ يعيد تشكيلها، أي أنه بدأ يفتح عينيه ويدرك عالمه، وها هو قد قفز العتبة التي تفصل عالم الحيوانات عن عالم الإنسان، فالعمل الإنساني يؤثر في مادة هذا العالم، والمادة الموجودة في الطبيعة المحيطة تمنح العقل الإنساني أسرار قوتها، ومع كل زيادة في إدراك صفات المادة وكيفية توظيفها يرتقي العقل الإنساني وتزداد هيمنته على هذا العالم، لكن العقل لا يستطيع أن يفهم إلا بعد أن يضع رموزًا لصفات المادة، ولا بد أن تشير هذه الرموز إلى معان؛ أي أن العقل البشري لكي يتطور لا بد أن يمتلك لغة، بها يستطيع التعرف على العالم وتعريف مادته، وبها يستطيع أن يقسّم عمله، أي ينشئ مجتمعًا على عكس بقية الكائنات، وفي داخل اللغة يستطيع الإنسان أن يختزن تجربته فينقلها لنسله، أي يراكم

خبراته فيصبح له تاريخ، وذلك معنى قولهم إن الإنسان (حيوان له تاريخ)، وذلك أيضًا يؤكد ما اخترناه عنوانًا لهذا الفصل من أن تاريخ اللغة هو تاريخ التطور البشري.

لكن صاحبنا (الهومو - هابيلس) لا يملك في طفولته البشرية تلك معارف كثيرة تستدعي إنشاء نظام لغوي، تكفيه إشارات اليدين، ويكفيه أن يدمج مع تلك الإشارات بعض التلاوين الصوتية التي يستطيع أن يؤديها، وهو حينما يشرع في إصدار الأصوات من صفير أو صراخ يكون أكثر تحكمًا في يده اليمنى، بحكم نظام عمل جهازه العصبي، لذلك فإن معظم أفراده سوف يميلون إلى استخدام اليد اليمنى أكثر من اليسرى، ليظهر الأيمن والأعسر بين الناس (وحتى الآن فإن 90٪ من البشر يميلون لاستخدام اليد اليمنى أكثر من اليسرى)، ثـم إن جهــازه الصـوتي لا يـزال بدائيًّا لا يمنحه القدرة على تقطيع الصوت المتصل إلى حروف، وقد عاش هذا الصنف من البشر ثمانمائة ألف سنة، اضطر خلالها أن يرتحل بعيدًا عن بحيرة أولدفاي حتى وصل إلى كينيا، كان خلال تلك الفترة يجري وراء الطرائد أو يلتقط الثمار، فطالت ساقاه وقصرت يداه وانتصبتقامته رويدًا رويدًا،وزاد إدراكه للطبيعة فكبر مخه حتى بلغ حجمه ثلاثة أرباع حجم مخ الإنسان الحالي (ابن زماننا)، وها قد أصبح اسمه (الهومو - إريكتوس).

[ومن المهم هنا أن نشير إلى أن اختفاء (الهومو - هابيلس) لم يحدث فجأة، وكذلك ظهور الهومو-إريكتــوس؛ إذ وجدت عظام الفصيلتين في كينيا، مما يعني أن هناك نوعين من الفصائل البشرية قد عاشا معًا في إفريقيا] .

الهومو-إريكتوس.

أكثر من مليون سنة عاشها على الأرض ذلك (الهومو-إريكتوس) كان فيها صانعًا ماهرًا للأدوات الحجرية، واستطاع اكتشاف النار والسيطرة عليها، فمنحته طاقة جديدة على الارتحال إلى أماكن باردة، فهاجر إلى آسيا وأوربا بعد أن ضاقت عليه إفريقيا. كان الرحيل خارج إفريقيا هو ضرورة حياة لهذا الكائن؛ لأنه يعتمد في بقائه حيًّا على صيد الحيوان وجمع الثمار، ولكن جمع الثمار يحتاج مساحة واسعة من الأشجار متى استهلك ثمارها فإنه يرحل عنها، ومطاردة الحيوان كذلك تحتاج مساحة كبيرة من الأرض، لذلك ضاقت عليه إفريقيا فرحل عنها.

وبصحبة هذا الفصيل من النوع البشري سوف نرحل قليلاً عن إفريقيا؛ لأننا لا نستطيع مقاومة إغراء الكتابة عن ظهور وتطور اللغة بين الجنس البشري، وسوف نتعثر في مشينا بلقية عظمية سميكة وجدها العلماء في وادي نياندر غرب ألمانيا عام 1856، كانت عبارة عن غطاء لجمجمة، تشابهت ولكنها لم تتطابق مع غطاء جمجمة الإنسان الحديث، وهكذا وقفت تلك العظمة في حلق علماء التشريح لمدة ثلاث سنوات حتى نشر داروين كتابه عن أصل الأنواع عام 1859، وكشف فيه عن أبحاثه في تطور الكائنات، فعرف علماء التشريح أن العظمة التي وقفت في حلقهم تشكل حلقة من حلقات التطور الإنساني، وأطلقوا على الكائن صاحب العظمة اسم إنسان نياندرتال (نسبة إلى تلك المقاطعة الألمانية التي وجدت فيها أول عظمة لهذا الإنسان)، ثم تراكمت اللقى العظمية من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وكان أكملها ما وجد في كرواتيا، ولفترة طويلة اعتقد العلماء أن هذا الإنسان قد ترك آباءه من الهومو-إريكتوس في إفريقيا وهاجر إلى أوربا، حيث راح يتطور بشكل منفصل وظل مقيمًا في أوربا حتى اختفى منذ 24 ألف سنة، ولكن الاكتشافات الحديثة عثرت على البقايا العظمية لهذا الإنسان في مغاور جبل الكرمل في فلسطين، وفي مغارة شمال حلب وجد هيكل عظمي لفتاة عمرها خمس سنوات، ماتت منذ مائة ألف سنة، كذلك عثر على البقايا العظمية لإنسان النياندرتال في مواقع بيرود، وبئر الهمل وجرف العجلة وعفرين في سوريا، وشانيدار في العراق، ومنطقة المسلوخة في لبنان.

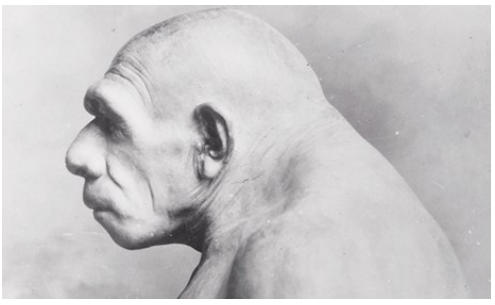

تكوين عظمي وعضلي كثيف (إنسان النياندرتال).

عمومًا فقد كون العلماء فكرة عامة عن هذا الإنسان، فقد كان أقصر منا ولكنه كان مدكوكًا ثقيل العظام، إذ إن عظام اليد والرجل تبلغ ضعف عظامنا من حيث السمك، مما يشي بتكوين عضلي أقوى منا، وكان أشقر، يغلب اللون الأحمر على شعر معظم أفراده، مع أنف بارز ووجه

مستطيل وجمجمة كبيرة ذات جبهة منخفضة مسحوبة للوراء، يزيد حجم مخه على حجم مخ الإنسان الحديث بحوالي 10 ٪ وإن كـان الفــص الأمامي للمخ أصغر حجمًا منا، كان صائدًا ماهرًا صنع الرماح الطويلة

إنسان نياندرتال (الصائد الماهر).

ذات الــرءوس والسكاكيــن الحادة من الحجر،

كان يصطاد في جماعات لأن الحيوانات التي اصطادها من أودية أوربا في العصر الجليدي الذي عاش فيه ذلك الإنسان كانت تضم الأحصنة الوحشية، والماموث - وهو نوع من الأفيال المنقرضة ذات الشعر الكثيف - ووحيد القرن ذا الصوف، وتلك حيوانات ضخمة تحتاج مهارة عالية وتنسيقا بين فريق الصيد، كذلك سكن الكهوف والمغارات، وستر بدنه بالملابس، واتخذ المواقد، وقد وجد بينها مواقد كبيرة تتخذ للجلسات الجماعية، وأخرى صغيرة، كما امتلك نظرة وجودية لهذا الكون فلم يقبل بالموت نهاية أخيرة للنفس؛ إذ تدل الحفائر على أنه دفن موتاه على رجاء القيامة فوضع معهم بعض الأسلحة حتى يصطادوا في الحياة الأخرى، وقد وجد في أحد القبور هيكل عظمي لرجل في الأربعين، عاش نصف مشلول أثناء حياته، وقد فرش قبره بالزهور مما يدل على شكل من الترابط الأسري والتوقير الاجتماعي للفقيد.

وحتى عام مضى كان العلماء يعتقدون باستحالة وضع خريطة مورثات (الچينوم) لهذا الإنسان نظرًا لأن العينات العظمية التي بين أيدينا قد مضى عليها قرابة الأربعين ألف عام، ولكن شركة (life sciences) طورت طريقة لفحص وتحديد المورثات أسرع مائة مرة من الطرق السابقة، ذلك ما جعل العالم السويدي «سافنت» من معهد ماكس بلانك الألماني يتحمس لوضع خريطة وراثية لإنسان النياندرتال مع زميله الأمريكي إدوارد روبين من مختبر بيركلي في كاليفورنيا، ويتوقع العالمان أن يفرغا من وضع الخريطة الوراثية قريبًا، عندها سيكون لدينا تصور كامل عن هذا الإنسان. نتيجة أخرى كشفتها الأبحاث، فمنذ عدة سنوات، وأثناء دراسة العلماء لأفراد عائلة إنجليزية لا يستطيعون جميعهم النطق، تعرف العلماء على المورثة المسئولة عن كلام البشر وأطلقوا عليها (فوكس بي 2)، وقد وجد العلماء نفس المورثة لدى

إنسان النياندرتال، مما يعني أنه كان قادرًا على الكلام، وقد تم تأكيد هذه المعلومة في ثلاثة مختبرات في كل من ألمانيا وفرنسا وإسبانيا.

لقد انحلت إذنْ عقدة لسان هذا الإنسان وأصبح قادرًا على تقطيع الحروف ونطق الكلمات، ولكن هل نطق الكلمات يعني امتلاك اللغة؟

❀ ❀ ❀

فى إبريل 2008 طيّرت وكالة أنباء رويتر خبرًا ملخصه:

أن البروفيسور روبرت مكارثي من جامعة أتلانتك بالولايات المتحدة قد استخدم الأدلة التشريحية في إعادة بناء الجهاز الصوتي لإنسان النياندرتال، وقد استخدم أسلوب المحاكاة الكمبيوترية لإعادة إنتاج صوت ذلك الإنسان، وقد استمع الفريق العلمي بقيادة مكارثي إلى صوت النياندرتال، ولكنهم وجدوه يختلف كثيرًا عن صوتنا، إذ إن بنية جهازه الصوتي لم تمكنه من نطق الحروف المتحركة، والتي تجعل السامع يميز الكلمات عن بعضها، أو طبقًا لتعبير مكارثي helps a listener distinguish the word «beat» from bit، وإلى أن يتم تدعيم نتائج هذه الدراسة بدراسات أخرى، فإننا نقف عند السؤال الذي طرحناه وهو: إذا كان هذا الإنسان قد استطاع تقطيع الإشارة الصوتية بعد أن اشترك لسانه في الكلام، فصارت الحروف كلمة، نعم قد تفتقد المرونة والتفصيل كما استخلص مكارثي وفريقه، فهل هذا يعني أنه قد امتلك لغة؟ وللإجابة عن هذا السؤال سوف نعود إلى ما قررناه سابقًا في هذه السلسلة من أن اللغة هي اتفاق عشوائي بين مجتمع من البشر، فالحركات الصوتية هي مجرد رموز تتفق الجماعة على دلالتها، لكن ترتيب هذه الرموز في جملة يقتضي نظامًا من القواعد، يتحدد بها دلالة الفعل، وزمن الفعل (ماض أم مضارع أم مستقبل)، ومكان الفعل، وفاعل الفعل، والمفعول به، وبدون ذلك ليست هناك لغة، والكلام المنطوق بدون قواعد لا يكون إلا علامات صوتية تشير إلى قصد مباشر وبسيط، مثل أن يهتف الإنسان البُدائي بكلمة تحمل معنى الوحش لينبه الجماعة إلى خطر قائم، أو يهتف بكلمة تحمل معنى الثور ليشير إلى صيد محتمل، وبالطبع فإن تلك الإشارات الصوتية المحدودة لا تستطيع أن تعكس مفهوما معنويًّا مثل الحب أو العدل، ولا تستطيع أن تعكس علاقة الفعل بالبعد الزمني في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ ذلك لأن اللغة بأبعادها الزمانية والمكانية لا تتحقق إلا عند درجة ما من التطور الاقتصادي للمجتمع وما يقتضيه هذا التطور من تعاون اجتماعي،

وتبادل للخبرة على مستوى تطوير أدوات الإنتاج في سبيل تحقيق استغلال أفضل للطبيعة، كما أن الألفاظ التي تشير إلى دلالات معنوية، لا يفترض أن توجد خارج سياق اجتماعي يعكس تطورًا في المفاهيم الثقافية، فالعدل مثلاً يصبح عديم المعنى خارج المجتمع، والجميل هو النافع لمجتمع بشري في فتـرة تاريخية محددة، أو ما اصطلحنا على تسميته بالخير، والقبيح هو الضار للمجتمع أو ما اصطلحنا على تسميته بالشر، أي أن اللغة لا تتشكل إلا عبر منظومة من العلاقات العملية والقيم الاجتماعية التي يتأسس بها المجتمع الإنساني، وهنا وجب أن نذكر بالفرق بين الجماعة التي يعيش فيها النمل أو النحل أو الحيوان، والمجتمع الإنساني الذي يبتكر أدوات إنتاج للسيطرة على الطبيعة، وأشكالاً مرنة من التنظيم الاجتماعي تعطيه قوة تفوق قدراته العضلية بمراحل، واللغة هي الأداة الأخطر التي تقف وراء قيام المجتمع وتمكين الإنسان في الأرض، لكن الكلمات التي تتكون منها أي لغة هي محدودة العدد مقارنة بالنمو المتواصل لخبرة ومعارف الإنسان، لذلك فإن اللغة ليست مجرد رص للكلمات، وإنما تتغير دلالة الكلمة حسب علاقتها بغيرها من الكلمات، فالمعنى يختلف كليًّا بين قولك جاء زيد أو حضر عمرو، وبين قولك يجيء زيد أو سيحضر عمرو، لذلك كان لابد من وضع قواعد للغة تحدد دلالة الكلمة حسب موقعها من السياق وعلاقتها بغيرها من الكلمات (وهنا أود أن أشير إلى أنه حتى ثرثرة عجائز النسوة التي يعتقد البعض أنها من سخيف الكلام، ما هي إلا معمار لغوي راق يخضع لقواعد معقدة) لكن وضع هذه القواعد وإشاعتها بين الناس لم يحدث في التاريخ الإنساني عبر نظام تعليمي، وإنما صاغته خبرة الناس وحاجتهم الماسة إلى التواصل، فاللغة ضرورة حياة للمجتمع، وتطور اللغة بالتوازي مع التطور الحضاري والثقافي للمجتمع هو ضرورة حياة أيضًا، وهنا يجوز لنا أن نستدعي كلمة الدكتور طه حسين وهو يرد على دعاة الجمود اللغوي، فقد قال العميد بصوته الرخيم (لغتنا العربية يسر لا عسر، ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما نحتاجه من كلمات).

❀ ❀ ❀

فإذا مارجعنا إلى إنسان النياندرتال، فسوف نجد أن الفترة الزمنية التي عاشها على ظهر الأرض تقارب 250 ألف سنة وهي أطول من الفترة التي عاشها نوعنا نحن جماعة (الهومو سابينس) منذ أن ظهر جدنا الأول في إثيوبيا

منذ 195 ألف سنة، ومع ذلك فقد امتلكنا ما تعرفونه من تكنولوچيا سخرنا فيها معطيات الطبيعة وطاولنا عنان السماء، أما ابن عمنا من النياندرتال فلم يتحرك إلا خطوة صغيرة تجاوز فيها أباه من الهومو- إريكتوس ثم تجمد بعدها، فلم تتجاوز أدوات عمله الحراب والسكاكين الحجرية، أما أماكن إقامته فقد كانت الكهوف التي أوجدتها الطبيعة، ولم تكن ملابسه إلا من جلد الحيوان الذي برع في اصطياده، والعلماء متعثرون في تفسير هذا الجمود الحضاري، وإن كان بعضهم يشير إلى عدم النمو الكامل للفص الأمامي من مخ ذلك النوع الإنساني، حيث إن الفص الأمامي هو مركز التفكير والذكاء وتجريد المعاني والسيطرة على المشاعر وتشكيل معـالـم الشخصـية، لكن ذلك الرأي هو اجتهـاد لا تسنده أدلة قوية، فقد عرف ذلك الكائن فنون الصيد، وشكل فرقًا لصيد الحيوانات الضخمة، مما يعني إدراك نقاط ضعف الحيوان والتنسيق الجماعي أثناء الصيد ثم تقسيم الفريسة، كذلك نعلم أنه كرم موتاه بالدفن وجمع لهم الزهور، وصنع المواقد الصغيرة للاستعمال الفردي، والكبيرة للقاءات الجماعية، مما يعني امتلاكه لحياة اجتماعية، وقدرته على تجريد المعنى من المعطيات البيئية التي احتاجها في حياته البدائية، وإن كنا بناء على ما قدمناه في صدر هذا البحث من أسباب نشوء اللغة وتطورها في المجتمعات نستطيع أن نجزم أن هذا الإنسان لم يمتلك لغة ذات قواعد كالتي نمتلكها، نظرًا إلى فطرية الحياة التي عاشها، والتي كان يكفيها بضع كلمات ينطقها، وإشارات يرسمها، أو رقصات يرقصها، فلم تنهض إذَنْ ضرورة حياة تدفعه إلى تطوير نظام لغوي، وحجة الفص الأمامي للمخ لا تصلح تبريرًا لهذا السكون الحضاري، ثم إن الهنود الحمر في الأمريكتين، وسكان أستراليا الأصليين، والقبائل البدائية التي وجدت في غابات إندونسيا، قد امتلكوا نفس الفص الأمامي من المخ الذي نملكه، باعتبارنا وإياهم جميعًا من نفس فصيلة الهومو سابينس، ومع ذلك فقد عاشوا نمطًا فطريًّا من الحياة لا يبتعد إلا خطوة أو خطوتين عن إنسان النياندرتال، بل حتى اللغة المنطوقة التي نمتاز بها، أثبتت الأبحاث أن بعض الشعوب البدائية تستعمل لغة قليلة المفردات محدودة القواعد، وقد حدثتكم أنني التقيت في تنزانيا بعض المرضى الذين عاشوا حياتهم في مجموعات معزولة داخل الغابة، وأن لغتهم تحوي الكثير من الصيحات والقليل من الكلمات التي تعجز المترجمة مارجريت عن فهمها، وقد فسر فردريك إنجلز في كتابه المهم (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) بقاء المجتمعات البدائية في الأمريكتين وأستراليا وإندونسيا دون تطور، مرجعًا ذلك إلى غياب الملكية الخاصة في تلك المجتمعات، فظلت عند

الحلقة الأولى من المشاعية البدائية، لأن الصراع على الملكية هو الذي يدفع قاطرة التاريخ، وهو تفسير أعتقد أنه صالح أيضًا لتفسير الجمود الحضاري لإنسان النياندرتال، فهو لم يعرف الملكية الخاصة، وبالتالي لم يعرف الصراع الاجتماعي، وظل عند مرحلة المشاعية البدائية، أما عن أسباب انقراض ذلك النوع الإنساني من على ظهر الأرض، فالعلماء شديدو الحذر في مناقشة هذا الأمر في انتظار النتائج التي ستفصح عنها دراسة التركيب الوراثي لهذا الكائن، فالنتائج التي ظهرت حتى الآن تنفي وقوع تزاوج بين أفراد فصيلتنا من الهومو سابينس وأفراد النياندرتال، وبالتالي فإنه من المستبعد أن يكون أفراد هذا النوع البشري قد ذابوا في الحوض الچيني للإنسان الحديث، كما لا توجد أي حفائر تاريخية تشير إلى وجود صراع إبادة قادته الطلائع الأولى من أجدادنا الذين غزوا أوربا قبل 45 ألف سنة فوجدوا فيها النياندرتال، وتلك كانت بعض الفرضيات التي لم تثبت أمام الأبحاث العلمية، ومن المنتظر أن تفصح دراسة الچينوم الوراثي لأبناء العم عن حل لهذه الإشكالية المحيرة.

وظهــر الإنســان الحكيم

فإذا ما ذهبنا إلى وادي نهر أومو في إثيوبيا فسوف نجد نفس الظاهرة التي وجدناها في بحيرة أولدفاي في تنزانيا، بركان يثور فتردم صخوره السائلة جثث الأحياء، وبعد آلاف السنين يحدث زلزال يشق الأرض فيتشكل نهر يجري في المنطقة فينحت في الصخر البركاني ليكشف بقايا الأجداد، ليأتي عالم الأنثروبولوچيا ريتشارد ليكي (ابن لويس وماري ليكي) ليحفر، فيعثر سنة 1967 على أول جمجمة للإنسان الحديث، وقد أثبتت الدراسات التي أجريت عليها أن الإنسان الحديث، أو جدّنا من الهومو سابينس (وهي تسمية تعني الإنسان الحكيم صاحب المعرفة) قد ظهر وتجول بين ناس ذلك الزمان المقيمين في وادي نهر أومو في إثيوبيا منذ 195 ألف سنة، وأنه قد انحدر مباشرة من صلب أبيه الهومو-إريكتوس، ويبدو أن الأعداد المبكرة من أجدادنا التي حدث لها هذ التطور كانت قليلة نسبيًّا؛ لأنه أقام فترة طويلة في إفريقيا ربما تصل إلى عشرات الآلاف من السنين، قبل أن تتكاثر أعداده فيمشي في مناكبها يمينًا وشمالاً سعيًا وراء رزقه، يلتقط الثمار ويصطاد الحيوان، والعلماء مجمعون أن الإنسان الحديث قد قضى قرابة مائة وخمسين ألف سنة، دون أن يمتلك لغة متكاملة،نعم كان ينطق بعض الكلمات التي احتاجتها حياته البدائية، لكن زمن ظهور اللغة لا يعود لأكثر من خمسين ألف سنة، دليلهم في ذلك أن الآثار التي تركها الأجداد طوال مائة وخمسين ألف سنة لا تزيد على أدوات صيد حجرية، فلو أنه امتلك لغة فإن معنى ذلك أنه امتلك معرفة يستدعي تبادلها إنشاء نظام لغوي، ولو أنه امتلك المعرفة لامتلك حضارة ما، ولباحت لنا هذه الحضارة بأثرها.

وأقدم الرسوم والمنحوتات التي عثر عليها العلماء في كهوف أوربا تعود إلى حوالي ثلاثين ألف سنة فقط، وقد استخدم الفنان البدائي أوكسيد الزنك في تلوين تصاويره، مما يشي بامتلاك الإنسان في تلك الفترة قدرًا من المعارف التكنولوچية، التي مكنته من استخراج العناصر ودراسة خواصها، وامتلاك النزعة الفنية يعني تطورًا اجتماعيًّا وروحيًّا للإنسان، جعله يحاكي الطبيعة بإبداعه، ويرسم تصاويره الجميلة على جدران الكهوف ليشاهدها الجمهور في زمانه، وتلك المعارف لا يمكن أن تتراكم إلا عبر تواصل إنساني أرقى، تتبادل فيه الجماعة خبراتها وأفكارها، وذلك لا يتم إلا عبر لغة منطوقة، فاللغة إذن

تعكس مستوى معرفيًّا للجماعية، واللغة باعتبارها نظامًا للتواصل، تطور المستوى المعرفي للجماعة التي تراكم الخبرة وتتبادلها عبر اللغة، فهي أرشيف الجماعة البشرية، وبواسطة هذا الأرشيف لم تعد معارف البشر مبعثرة، وإنما أخذت تتراكم وتترابط مع بعضها بالتوازي مع التطور الاجتماعي للجماعة، حتى أتى على الإنسان حين من الدهر ودرجة من التطور الاجتماعي لم يكتف فيها برموز اللغة وسيلة للتواصل، بل راح يسجل هذه الرموز في صورة تصاوير تشير إلى المعنى والغرض، فكانت الكتابة التصويرية التي ظهرت أول ما ظهرت على ضفاف النيل فى أرض كيما بين المصريين (وكيما هو الاسم الفرعوني لمصر)، وبالتوازي مع ذلك ظهرت الكتابة المسمارية في وادي الرافدين بالعراق، فأطلقت قاطرة التاريخ صافرتها إيذانًا بالسرعة العالية.

لقد ظهر الهومو سابينس حكيمًا، وبتراكم المعرفة أصبح عارفًا، ثم صار أبا العريف، فلم يكتف بالتجول على ظهر أمنا الأرض، بل ركب ظهر البحر وغطس فيه بغواصته، وقفز إلى القمر وأرسل أدوات عمله إلى المريخ، ومد يده في باطن الأرض يستخرج المعادن ومصادر الطاقة، لقد عمر الدنيا واستعبد الطبيعة، فهل يا ترى ستجري عليه أحكام التطور كما جرت على غيره من الكائنات؟ وبهذا السؤال تكون جولتنا في متحف التاريخ الطبيعي بدار السلام قد انتهت، بعد أن طالت فزادت على اثنين ونصف مليون عام هي عمر النوع الإنساني الذي تتبعنا مراحل تطوره، زد على ذلك يومين تجولت فيهما في هذا المتحف، في اليوم الأول كنت قادمًا لتوي من مصر أبحث عن شيء أقطع به الوقت فوقعت لي فكرة زيارة المتحف، فوقفت على حقيقة ما أنا فيه من جهل استدعى مني سنوات من الدراسة حتى استطعت أن أحل لغز تلك الجمجمة الصغيرة لإنسان الهومو- هابيلس، فكان اليوم الثاني الذي عدت فيه إلى المتحف بعد مرور تلك السنوات، مشتاقًا إلى رؤية ذلك الجد بعد أن تحققت من صلة القرابة، فلما وقفت أمامه لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أمد يدي - عبر الزمان - لألمس عظامه، فالسلام على الهومو - هابيلس، الجالس في عظمة ووقار في متحف دار السلام.

سخاء الطبيعة.. سكون التاريخ

المواقع السياحية التي تستحق الزيارة في تنزانيا كثيرة مثل الحدائق المفتوحة التي يشاهد فيها الزائر الحيوانات وهي تسرح في بيئاتها الطبيعية، ومثل بحيرة فيكتوريا، وجبال كليمنجارو التي يصل ارتفاع قمتها إلى ستة كيلومترات، وتغطي الثلوج قمتها رغم قربها من خط الاستواء، لكن تلك المشاهد السياحية هي من فعل الطبيعة، أي أنها لا تعكس حضارة إنسانية نشأت في هذه البلاد وتركت آثارها كما هو الحال في مصر التي تعكس الآثار الفرعونية فيها تنظيمًا اجتماعيًّا رفيعًا، نشأت معه الدولة والسلطة والمشاريع الكبيرة والعقائد الدينية المتطورة، وقصارى ما تركته المجتمعات التي سكنت منطقة تنجانيقا هو مجموعة من الآثار البدائية، مثل الطبول والأقنعة والحراب، وهي شواهد تشير إلى تنظيم عشائري أو قبلي يتعاطى مع الطبيعة بشكل فطري، وقد امتد هذا النمط من الحياة البدائية، والتنظيم الاجتماعي القائم على علاقات القرابة آلاف السنين، لم تتطـور فيها المجتمعـات التي سكـنت تلك البلاد، ولا أستطيع الجزم أن تلك المجتمعات قد ظلت في مرحلة المشاعية البدائية، فالدراسات التي وقعت عليها فقيرة للغاية في مناقشة نمط الإنتاج الذي ساد تلك المجتمعات، لكني استخلصت أن سخاء الطبيعة هنا كان مسئولاً عن بطء التطور التاريخي الذي وصل إلى حد السكون الكامل لعدة آلاف من السنين.

فالطبيعة هنا في غاية الكرم، تمنح الناس صيدًا وفيرًا، وفاكهة كثيرة متنوعة دون جهد بشري، فالمهارات البشرية اقتصرت طوال آلاف السنين على إتقان فنون الصيد وجمع ثمار الفاكهة، وذلك مستوى بدائي من التعامل مع الطبيعة، لا يكسب الإنسان تطورًا عقليًّا، ولا يحدث تطويرًا في النظام الاجتماعي، إذ تكفيه الصيغة العشائرية، وقد فسرنا ذلك في معرض حديثنا عن تطور العقل الإنساني الذي ينشط حينما يواجه التحدي، فالإنسان يبحث في خصائص المادة التي يتشكل منها عالمه حينما يكون مضطرًّا إلى تطوير أدوات عمله، وأثناء هذا البحث وذلك التطوير لأدوات العمل تمنحه مادة هذا العالم بعض أسرارها، وبذلك تتطور مداركه، وتزداد سيطرته على الطبيعة، أيضًا فإنه يطور من أنظمته الاجتماعية حينما يحتاج إلى تقسيم أرقى للعمل، وعلماء الاجتماع متفقون على أن ظهور الملكية الخاصة هو ما أشعل الصراع بين

البشر على الأرض، ومع هذا الصراع تطورت مهارات الإنسان وتطورت تنظيماته الاجتماعية، وكل تلك التحديات لم تواجه البشر الذين عاشوا في منطقة تنجانيقا، وذلك ما أدى إلى سكون التاريخ في هذه المنطقة من العالم. فإذا تتبعنا رحلة الإنسان الحديث الذي ظهر أول ما ظهر في حوض نهر أومو في إثيوبيا كما تدل الحفريات، والذي أخذ يتكاثر في حوض ذلك النهر، متعايشًا مع أسلافه من إنسان (الهومو - إريكتوس)، فسوف نجد أنه قد استمر صائدًا للحيوان جامعًا للثمار مثل أسلافه، فلما تكاثرت أعدادهم وضاقت بهم ضفاف النهر اضطروا إلى الارتحال بمحاذاة النيل، فأما الأقوام الذين اتجهوا شمالاً بمحاذاة نهر النيل سعيًا وراء الطرائد وجمعًا لما يخرجه نبات الأرض من ثمار فقد طالت بهم الرحلة، فتعاقبت عليهم السنون وتبدلت الأجيال، حتى وجدوا أنفسهم في دلتا النيل وأمامهم البحر المالح، فاتجه بعضهم شرقًا، واتجه بعضهم غربًا، وبقي من بقي منهم في أرض كيما، أو الأرض السوداء التي أصبحت مصر فيما بعد، ،ومع التكاثر العددي للبشر لم يعد جمع الثمار يكفيهم، ذلك ما دفع الإنسان القديم في مصر للتأمل ليكتشف أن البذور هي التي تنبت الأشجار التي تأتي بالثمار، ومنذ قرابة عشرة الآلاف سنة بدأ الإنسان ينثر البذور فإذا فاض النهر وغمرها أنبتت النبات، وبذلك دشن الإنسان الذي سكن وادي النيل في مصر أعظم ثورة في التاريخ، وهي الثورة الزراعية، فركض التاريخ معه ركضًا إلى الحضارة، فالتمييز بين النافع وغير النافع من البذور هو معرفة تتراكم في وعي الإنسان، وتمهيد الأرض هو جهد خاص، والأرض المزروعة تحتاج حراسة حتى لا ينهبها الغير، والحراسة تحتاج سلاحًا ومعرفة بالقتال، ومن هنا ظهرت الملكية الخاصة فظهر معها الصراع للدفاع عنها أو لاغتصاب وسرقة جهد الآخرين بالقوة، كذا لم يعد الإنسان وقد استقر به المقام في حاجة لأن يجري وراء الطرائد كلما عضه الجوع، بل عليه أن يجمعها ويطعمها ويسقيها فتأنس له، فإن استأنسها وأمنت له جز صوفها وشرب لبنها ثم أكلها أو أكل من ولدها، كذلك لم يعد في حاجة لأن يمشي مسافات طويلة كي يجمع الثمار، بل عليه أن يحرس أرضه ليجني منها الثمر، لكنه وجد أن من البذور ما يحسن نموه في الحر، ومنها ما يحسن نموه في البرد، وتلك معرفة أخرى ميز فيها الإنسان بين أنواع البذور وفصول المناخ، فكان تقويمه صيفًا وشتاءً، لكنه إن نثر البذور لا يعرف متى يفيض النهر بمائه فيرويها، فللنهر مواعيد تفيض ماؤه ومواعيد أخرى ينحسر فيها، فكيف له أن يعرف تلك المواعيد؟ وهو إن بذر البذور فطال عنها غياب النهر، فإن طيور السماء تأتي فتلتقط الحب فلا ينبت زرع، عليه إذن أن يميز الأيام المتشابهة

من بعضها ليعرف مواعيد النهر، لكن الأيام نهار وليل وما من علامة على الأرض تساعده، فلينظر إلى السماء ليجد قمرًا يتغير مع مرور الأيام؛ يبدأ هلالاً ثم يزيد حجمًا حتى يكتمل، فإن اكتمل يتناقص حتى التلاشي، ليعيد دورته من جديد، تتكرر الفصول في نظام ثابت ويتغير حجم القمر مع الأيام؛ فلو رشق عصًا في الأرض كل يوم أو وضع علامة فإنه يستطيع أن يعد الأيام التي تستغرقها الفصول حتى تستدير وتعود ثانية، فعرف أن للشمس دورة تتكرر كل 365 يومًا، وعرف أن للقمر دورة تتكرر كل قرابة الثلاثين يومًا، فقسم الأيام ورسم الشهور، ومنح فصول السنة أسماءها وصفاتها، وعرف متى يزرع ومتى يقلع، فحق له عندئذ أن يستنطق النهر وأن يكشف أسراره، لقد منح النيل الحياة للمصري القديم فمنح المصري الحياة أيضًا للنيل، إذ جعل له روحًا ونصبه إلهًا وسماه (حابي) فكان حابي يرضى ويسخط، ويقبل بمائه ويدبر، لكن البشر يتناسلون ويتزايدون، فهم بحاجة لحفر الأقنية كي تحمل الماء إلى الأرض التي لا يصل إليها فيضان النهر، وتلك ضرورة حياة لهذا المجتمع الوليد، حتى لا يشتبك أفراده الذين تكاثروا في عراك على المحاصيل التي تنمو بجوار النهر، لكن شق القنوات يحتاج إلى جهد جماعي، وتجميع الناس يحتاج إلى تنظيم وإدراك وقوة قاهرة تسوق الجميع إليه، ومن هنا نشأت السلطة والدولة، وبذلك فإن التحدي الذي واجه الإنسان في تطويع النهر في أرض مصر، هو الذي أدى إلى ظهور أقدم حضارة وأقدم تقويم، ومن هنا بدأ التاريخ.

وأما الأقوام الذين اتجهوا من حوض نهر أومو في إثيوبيا جنوبًا إلى وسط إفريقيا وشرقها فقد صادفوا رزقًا وفيرًا، وطبيعة سخية، الأمطار تسقط من السماء في معظم فصول السنة، فتروي الغابات التي تحوي بانوراما واسعة من الفاكهة والثمـار وما على الإنسـان إلا أن يجمعها، دون حاجة لزرع أرض أو حفر أقنية، من المجموع الخضري الكثيف تأكل الحيوانات فتتناسل وتتكاثر لتشكل صيدًا وفيرًا يقتنصه الإنسان، لكن مهنة الصيد وجمع الثمار تحتاج مساحات واسعة من الأرض لا يناسبها التكدس السكاني، هكذا تناثرت الجماعة الإنسانية في مجموعات متباعدة تقطن في الغابات الإفريقية الشاسعة أو حول البحيرات الكثيرة التي تغطي هذه البلاد، السماء ترسل عليهم ماء مدرارًا، والأرض تنبت لهم ما يشتهون، وتنضج لهم من الحيوان ما يأكلون، لم ينشأ هنا التحدي الذي واجهه الناس في بر مصر، فلم يطور الإنسان القديم الذي سكن هذه البلاد من قدراته؛ إذ ليس منطقيًّا مع كل هذا الثراء البيئي الذي ترعاه الطبيعة أن يقوم الإنسان بزراعة أرض وحراستها،

فتأخرت الملكية الخاصة في الظهور، ولم تنشأ هنا الحاجة لإنشاء مشروع مائي، فلم تقم سلطة جماعية ولم تتشكل دولة، وظلت هذه البلاد مجتمعًا للصيادين حتى قبل الميلاد بقرن واحد، إلى أن جاءت عليهم قبائل الكوشيت من إثيوبيا، وكانت تلك القبائل أكثر حضارة؛ إذ تمتلك بعض المعارف عن الزراعة واستئناس الأبقار، ومنذ القرن الثاني الميلادي بدأت قبائل البانتو تأتي من غرب إفريقيا إلى تنجانيقا في هجرات متعاقبة، وكانت قبائل البانتو هي الأرقى حضاريًّا؛ إذ إنها تمتلك بعض المعارف عن الصناعات الحديدية، وكذلك بعض الخبرات في التنظيم الاجتماعي والسياسي، وقد تكاثرت قبائل البانتو حتى امتصت قبائل الكوشيت، واستمرت هجرات ما يعرف بالرعاة النيليين تفد على هذه البلاد حتى القرن الثامن عشر، أي حتى نشأت الحدود والدول (حتى الآن فإن الرعاة من أفراد قبيلة الماساي الذين يعيشون حياة شبه فطرية ويتوزعون بين كينيا وتنزانيا، لا يعترفون بالحدود، ولا يحملون وثائق سفر، ويرتحلون بأبقارهم بين كينيا وتنزانيا، مما يشكل مشاكل إدارية عديدة، وهم من ألطف خلق الله وسنأتي على ذكرهم لاحقًا).

ومنذ القرن الأول الميلادي كان هناك وجود لعرب عمان في جزيرة زنجبار التي تشكل مع تنجانيقا جمهورية تنزانيا، وكان هناك شكل من أشكال التبادل التجاري بين العرب وسكان الساحل الشرقي لكينيا وتنجانيقا، ومنذ القرن السابع الميلادي ظهرت المراكز التجارية العربية على طول الساحل الشرقي وبدأ الإسلام في الانتشار، ومع انتشار الدين الإسلامي جاءت اللغة العربية، وفي القرن العاشر الميلادي زارت قوارب التجار من الصين والهند الساحل الشرقي في رحلات منتظمة، وفي القرن الثاني عشر الميلادي بدأت تتشكل هوية سواحلية اختلطت فيها الثقافة العربية بالثقافة الإفريقية، وبين القرن الثالث عشر والخامس عشر تعاظم الوجود العربي، لكن في عام 1498 أبصر البحار البرتغالي فاسكو دي جاما شواطئ الساحل الشرقي لإفريقيا، وفي عام 1525 أخضعت البرتغال الساحل الشرقي لسيطرتها، واستمرت تلك السيطرة حتى بداية القرن الثامن عشر إلى أن قهرهم عرب عمان.

كان التاريخ يتحرك بسرعة على الساحل الشرقي، أما في داخل البلاد فقد كان الإيقاع أقل سرعة، وشهدت المناطق الداخلية ظهور ممالك صغيرة اعتبارًا من القرن الخامس عشر، وفي عام 1880 قامت ألمانيا باحتلال تنجانيقا، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى، فانهزمت ألمانيا، ولما ورثت إنجلترا أملاك الألمان، وقعت تنجانيقا تحت الاحتلال الإنجليزي إلى أن استقلت سنة 1961، وتولى الرئيس جوليوس نيريري رئاستها، وفي سبتمبر 1966 زار الرئيس

الراحل جمال عبد الناصر تنزانيا، وحسب ما سمعت من كبار السن هنا، فإن ناصر عندما زار تنزانيا لم تستطع السلطات ضبط الحدود، فقد عبر الأفارقة الحدود من الكنغو وكينيا ورواندا وزامبيا لتحية ناصر الذي كان نجمًا من نجوم حركة التحرر الوطني في العالم الثالث، وحتى الآن فإن مصر والمصريين يحظون بتقدير خاص لدى أهل تنزانيا.

كان دخول بلاد التنزان إلى الزمن الرأسمالي مؤلمًا، بدأ بالاستعمار وخطف البشر واستعبادهم لتحريك التروس الرأسمالية في إنجلترا التي تحتاج إلى يد عاملة رخيصة، ولتعمير الجزر الكثيرة التي اكتشفتها إنجلترا في محيطات الأرض، أو لزراعة القطن في الوديان الواسعة للجنوب الأمريكي، وكان دخول هذه البلاد للزمن الرأسمالي متعجلا أيضًا، فتداخلت المراحل التاريخية، وحتى الآن فإن ذيول الثقافة البدائية لا تزال موجودة وسط المظاهر الرأسمالية التي تزحف على المجتمع، ومن المشاهد المتكررة التي أراها كل أسبوع تقريبًا، مشهد الساحر الإفريقي الذي يرتدي الجينز ويلون وجهه بألوان فاقعة وأمامه أدواته من عظام وصدف وحجارة، وقد تجمع حوله الناس، ولا يزال 20 ٪ من أهل تنزانيا حتى أيامنا هذه يدينون بالديانة الإفريقية، تلك الديانة التي استغرقت مني وقتًا طويلاً حتى أستكشف ملامحها.

❀ ❀ ❀

في هذه البلاد التي جمعت الهندي على اليمني على الإفريقي على اللبناني، سوف تجد أتباعًا لكل الديانات، الشيعة بمختلف طوائفهم، والسنة بمختلف مذاهبهم الفقهية، أما المسيحيون هنا فأكثرهم ينتمون إلى الطائفة الإنجيلية، نظرًا لأن الإنجليز هم الذين استعمروا هذه البلاد، لكن للكاثوليك وجودهم المحسوس، وتستطيع تمييز رجال الدين منهم عن طريق ملابسهم الكهنوتية، على عكس رجال الدين الإنجليكان الذين يرتدون الملابس العادية ويتزوجون النساء، لكل طائفة من المسلمين مساجد خاصة بها، وقبور خاصة بها، ودور العبادة لكل تلك الطوائف تتجاور في سماحة، لكن ما لن تجده هنا هو دور العبادة التي تخص أصحاب الديانة الإفريقية التي يبلغ تعدادهم في تنزانيا حوالي سبعة ملايين نسمة حسب الإحصاءات الرسمية، وذلك ما حاولت أن أستكشفه فلم أحصل على جواب يشفي الغليل؛ إذ إن جميع من سألتهم يقولون كلامًا غامضًا، وليس ذلك عن لؤم وإنما عن جهل، فلجأت إلى صاحبي التنزاني الدكتور متشالو زميلي في مستشفى دودوما العام، والذي يجمع كل

العاملين بالمستشفى على حبه، فقال لي إن الديانة الإفريقية يصل عدد المؤمنين بها إلى أكثر بكثير مما تعلن الإحصاءات الرسمية؛ وذلك لأن أتباع هذه الديانة يخفون عقيدتهم تحت ستار الإسلام أو المسيحية تجنبًا للإجابة عن أسئلة لا يملكون إجابة لها، أو مجاراة للسائد، وأن أصحاب تلك الديانة يعتقدون بحضور أرواح الأسلاف في عالمنا المادي.

قلت زدني أيها الرئيس متشالو. فقال: إن الديانة الإفريقية ديانة فطرية، وهي الإرهاصة الروحية التي سبقت ظهور الأديان الكبرى، وهي تشبه كثيرًا فكرة الأطفال عن هذا العالم، فالأطفال يتعاملون مع الأشياء المحيطة بهم على أنها كائنات حية تفهم وتشعر، فيدللون لعبتهم المفضلة أو يشتمون السرير وقد يضربونه لأنه أوقعهم على الأرض، وكذلك يعتقد أصحاب تلك الديانة أن وجود الأرواح لا يقتصر فقط على البشر، ولكنها موجودة في كل عناصر الطبيعة وكائناتها من إنسان وحيوان ونبات وجبال وأنهار وصخور مبعثرة على الأرض، أو حتى الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق، ولذلك فهم يقدسون الطبيعة ويعيشون في تناغم معها سواء أكرمتهم أم قست عليهم.

سألته: هل من شعائر يمارسها أصحاب هذه المعتقدات، وهل لهم دور عبادة؟

قال: لا توجد شعائر محددة، ولكن توجد مجموعة من الطقوس والممارسات التي تختلف من منطقة إلى أخرى ومن مجموعة قبلية إلى أخرى، وفي العادة فإن شيخ القبيلة أو الساحر هو الذي يقوم بقيادة هذه الطقوس التي تبتهل إلى روح الطبيعة أو تخاطب أرواح الأسلاف من البشر، فهم يعتقدون أن أرواح الأجداد الذين ماتوا لا تزال تراقب عالم الأحياء، وأن هذه الأرواح ترسل رسائلها إلى الأحياء من خلال الأحلام التي يرونها أثناء نومهم. لكن استدعاء هذه الأرواح والتخاطب معها في حال اليقظة لا يكون إلا عبر طقوس معينة يقوم بها أشخاص يمتلكون قدرات خاصة على التواصل مع عالم الأرواح. هؤلاء الخواص يعادلون الرسل في الديانات السماوية، وإن كان عددهم في الديانة الإفريقية كبيرًا، وذلك نتيجة بعثرة وتعدد الجماعات الإفريقية التي تأخرت كثيرًا في إنشاء مجتمع موحد، فكانت كل جماعة مهما صغرت تحتاج إلى شخص أو أكثر من الذين يستطيعون التواصل مع روح الطبيعة

حوار مع الدكتور متشالو عن الديانة الإفريقية.

وأرواح الأسلاف لجلب التعليمات، ومن جماع تلك التعليمات تتشكل منظومة الصواب والخطأ التي سوف تكتسب مع طول الوقت طابع القداسة، وعلى ذلك اعتقد الناس أن من يخالف تلك المفاهيم أو يخرج على ذلك النظام التربوي فسوف تطارده روح الطبيعة وتلعنه أرواح الأجداد.

قلت لمتشالو وأنا أحاوره: ولكن الساحر أو حكيم القبيلة الذي يتصل بعالم الأرواح ويجلب التعليمات هو بشر، ومن المؤكد أنه سوف يلون تلك التعليمات التي يزعم أنها تأتيه من وراء الطبيعة بما يتناسب مع قدراته العقلية ومصالحه ورؤيته لهذا العالم، ثم إن التعليمات التي سوف تصل على لسانه سوف تتعلق بمجتمع معين في واقع معين في فترة تاريخية محددة، وذلك سوف يعطيها طابعًا تاريخيًّا وإن بدت غير ذلك، فقال إن ذلك صحيح وإن كثيرًا من الممارسات الطقسية تختلط بالشعوذة، وإن كثيرًا ممن لا يمتلكون هذه القدرات الروحية يمارسون النصب على العامة.

قلت: وهل تعتقد يا متشالو أن هناك من البشر من يملك قدرات خاصة للاتصال بعالم الأرواح؟

فقال: إنه لا يستطيع تأكيد ذلك ولا يستطيع نفيه، ولكنه شاهد في طفولته وصباه بعض الوقائع والمعجزات التي لا يجد لها تفسيرًا حتى الآن، وهذا هو السبب الذي جعل الناس تتهرب من مناقشة تفاصيل تلك الديانة معي؛ لأنهم لا يملكون تفسيرًا، ولا يستطيعون عرض ملامح تلك الديانة على عقلية لم تتشكل في التربة الثقافية التي تشكلوا فيها؛ لأنني من المؤكد سوف أتعامل مع هذه المعتقدات بسخرية، فما نسميه الديانة الإفريقية لا يحمل نفس المعنى الذي يتصوره أتباع الديانات السماوية، لفظ ديانة هنا هو لفظ فضفاض، فهي ليست ديانة ذات شعائر وأحكام محددة ودور عبادة منظمة، ولكنها مجموعة معتقدات تشكل ثقافة عامة أو نظرة وجودية كانت سائدة عند كل الشعوب قبل الأديان السماوية، فهم يعتقدون أن للطبيعة روحًا حية

تستحق التقديس، وأنها قادرة على الثواب إن هي رضيت عن البشر، وقادرة أيضًا على العقاب إن هي غضبت عليهم، وذلك ما ساعد في تنظيم الجماعة البشرية؛ لأنها بالترغيب في الثواب والتخويف من العقاب استطاعت أن تضع نظامًا اجتماعيًّا وأن تخلق لدى الفرد ضميرًا إنسانيًّا يجعله يضع في اعتباره مصلحة الجماعة البشرية التي ينتمي إليها، ويحترم الطبيعة التي يعيش فيها.

حماس الدكتور متشالو في الدفاع عن الديانة الإفريقية وسعة اطلاعه عليها جعلني أعتقد أنه أحد أتباع هذه الديانة، وإن كان يخفي معتقداته وراء أقنعة مسيحية، لذلك سألته مباشرة إن كان بعض أتباع هذه الديانة قد دخل المسيحية أو الإسلام على سبيل التقية. فأجاب أن الأمر ليس على هذه الصورة، لأنه لا يوجد في هذه البلاد اضطهاد ديني يدفع الناس إلى إخفاء معتقداتهم، أو ادعاء الإيمان بغير ما يعتقدون، ولكن ما تسميه مجازًا بالديانة الإفريقية ليس إلا مفاهيم ثقافية عامة أخذت طابع الرسوخ، لذلك عندما بدأت الديانات السماوية في الانتشار في البلاد الإفريقية، فإن الناس دخلوا في هذه الديانات القوية دون أن يتخلصوا تمامًا من إرثهم الثقافي، لذلك أخذوا معهم كل الممارسات السحرية التي تخاطب الطبيعة؛ إذ لا تعارض بين الإيمان بالأديان السماوية وتقديس قوى الطبيعة، أو مخاطبة أرواح الأجداد، وذلك ما حدث لغالبية سكان هذه البلاد، ولكن قسمًا من السكان يصل إلى 20٪ ظل على قناعاته بالمعتقدات الإفريقية ولم يشأ أن يدخل المسيحية أو الإسلام.

❀ ❀ ❀

حديث الدكتور متشالو الطيب أحالني إلى تأمل حزمة المعتقدات التي تسربت إلى عقولنا من مرحلة ما قبل ظهور الديانات الكبرى ولا تزال الغالبية تؤمن بها دون أن تجد تعارضًا بينها وبين إيمانها بالديانات السماوية، فاستطلاع الأبراج وما تأتي به من حظوظ للبشر يشكل مشتركًا ثقافيًّا إنسانيًّا، وإقبال مئات الملايين على القراءة اليومية لما ستفعله الأبراج السماوية بها يعكس اعتقادًا واسعًا في هيمنة تحركات الفلك على أقدار البشر، وأكثر الكتب انتشارًا هي كتب الحظ التي تتحدث عن الأبراج السماوية، وأكثر أبواب الصحف قراءة هي تلك المتعلقة بتصرفات أفلاك السماء، أما تنبؤات المنجمين فهي تشغل صفحات رئيسية من صحف العالم مع بداية كل عام ميلادي. وكل تلك المعتقدات تنتمي لديانات بدائية منقرضة، أو إذا شئنا الدقة فإنها تشكل معلمًا أساسيًّا من معالم النظرة الوجودية التي اعتنقها الإنسان

البدائي؛ إذ إنه في مرحلة مبكرة من طفولة البشرية وقف الإنسان عاجزًا أمام قوة الظواهر الطبيعية، ولم يكن لديه ما يفعله سوى أن يسترضيها بالكلمات، ومع الوقت سوف تكتسب هذه الكلمات طابع القداسة لتصبح صلوات يتلوها الإنسان للطبيعة القوية حتى ترضى عنه، وسوف تتحول هذه الطقوس إلى عقائد حينما يتصادف أن تصرف الطبيعة مقتها وغضبها كشأن كل الظواهر الطبيعية التي تحكمها قوانين طبيعية، لكن عقل الإنسان سوف يرجع ذلك إلى القوى السحرية التي تملكها تلك الكلمات، وحتى الآن فإن الاعتقاد في القوى السحرية التي تملكها الكلمات لا يزال شائعًا بين الناس، مثال ذلك ما ينتشر بين الأوساط الشعبية من اعتقاد أن العكوسات التي يكتبها السحرة والدجالون لها القدرة على إيقاع الضرر بالعدو، وذلك وجه آخر من أوجه الخلط الذي وقع فيه الإنسان البدائي، إذ لم يستطع التمييز بين الشيء وصورته الذهنية، كذا لم يستطع الفصل بين الإنسان واسمه الرمزي، فهو على مستوى الخيال يتصور عدوه مشنوقًا أو مضروبًا بالسهام، لذلك كان يرسم صورة العدو وقد رشقته السهام، اعتقادًا منه أن ما يحدث في الصورة سوف يصيب الكائن، وحتى الآن فإن من السلوكيات الشائعة لدى الطبقات الشعبية إذا نزلت بأحدهم نازلة من مرض أن يقوم أهله بعمل عروسة تمثل الروح الشريرة، ثم يقومون بتخريمها بالإبرة قبل حرقها استئنافًا لطقس سحري كان يفعله أسلافهم.

اعتقد الإنسان البدائي أيضًا أن إيقاع الضرر باسم الشخص سوف يتبعه إيقاع الضرر بالشخص نفسه، وحتى الآن لا تزال هذه العقائد سارية وتجد لها من يدافع عنها بشراسة، ويسمى ذلك عكوسات، بمعنى أنها سوف تعكس اللعنة من الاسم أو الصورة لتصيب صاحبها.

لقد وطئ الإنسان القمر برجليه وعرف أنه يتكون من صخور صماء، وأرسل الإنسان عقله ليزور الكواكب، وشاهد المجرات بنظره ورصد ولادة النجوم وفناءها، وعرف أن كل تلك الأجرام تخضع لقوانين رياضية صارمة، فقاس أبعادها وقدر كتلتها ورسم مداراتها، وأصبح الإنسان المعاصر بما حققه من تقدم علمي يستطيع التنبؤ بمستقبل تلك الأجرام. ورغم كل ذلك لا تزال بقايا الثقافات والعقائد البدائية تعشش في رأسه، فتتصور أن تلك الأجرام هي التي تتحكم في مستقبل البشر.

أو ليس الإيمان بإمكانية تحضير أرواح الموتى عبر طقوس معينة هو نفس ما يفعله الساحر الإفريقي الذي يستحضر أرواح الأسلاف عبر طقوس معينة؟ أو ليس الاعتقاد بوجود اتصال بين العالم المرئي الذي نعيش فيه والعالم غير

المرئي الذي تسكنه العفاريت هو من بقايا العقائد البدائية التي صاحبت العقل البشري عشرات الألوف من السنين واستقرت عميقًا فيه حتى أصبحت جزءًا من حقائق وجوده؟

❀ ❀ ❀

عسى الرب أن يعطينا الأبقار والأطفال

ذلك دعاء من أدعية أفراد قبيلة (الماساي) أعجب أهل تنزانيا، وأهل تنزانيا ينتمون إلى مائة وعشرين قبيلة شكلت مجتمعات ما قبل ظهور الدولة، انتقلت جميعها بسلاسة من صيغة القبيلة بنظامها الأبوي إلى صيغة الدولة بمفهومها القومي (الذي لا يزال هشًّا في تنزانيا) دون أن تحمل معها إرثًا مشابهًا لذلك الإرث الذي حملته القبائل العربية وهي تقيم دولها القومية، فلا توجد في تنزانيا قبائل شريفة ولا قبائل ضعيفة، ولا توجد عقبات أمام تزاوج أبناء القبائل من بعضهم، ولا توجد قبائل مسلمة وأخرى مسيحية، بل قد تتعدد الأديان بين أفراد القبيلة الواحدة دون أن يلفت ذلك نظر أحد.

لكن قبيلة (الماساي) شذت عن كل ذلك حتى تمنعت إلى حد بعيد عن الاندماج في صيغة الدولة، واحتفظت بطبيعتها شبه البدوية، وحاليًّا فإن أفراد هذه القبيلة الذين يصل عددهم إلى مليون نسمة يقيمون في منطقة واسعة يطلقون عليها «أرض الماساي» تمتد من جنوب كينيا إلى شمال تنزانيا لتشمل فيما تشمل مدينة دودوما التي عملت بها، وذلك ما جعلني أختلط مباشرة بأفراد هذه القبيلة ومنهم «دالا» التي ترددت على عيادتي للعلاج وكانت تتكلم اللغة السواحلية بشكل سمح لنا بالتواصل معها، ومنها علمت أن لأفراد الماساي لغة خاصة بهم، وأنها تمتلك ثلاثمائة بقرة، وأن لديها العديد من الأقراط والأساور الملونة.

❀ ❀ ❀

أفراد هذه القبيلة يمتازون بالجسد الرشيق والطول الفارع والملابس الحمراء المزركشة، والأذن المثقوبة ثقبًا كبيرًا يحوي العديد من الأقراط الملونة. وهم رعاة بقر، طعامهم اللحم واللبن. كذلك يشربون دم البقر أحيانًا، يثقبون الوريد الأساسي لرقبة البقرة فيشخب دمًا يجمعونه في وعاء للشرب، وقد ظلوا يتخذون من جلود البقر وجلود الماعز ألبسة يلبسونها حتى عام 1960، بعدها أخذوا يتحولون تدريجيًّا إلى لبس الأقمشة القطنية، واللون الأحمر هو لونهم المميز، والمكانة الاجتماعية لفرد الماساي تعتمد على ما يمتلكه من بقر وما ينجبه من أطفال، فإذا امتلك البقر ولم ينجب فهو فقير، وإذا أنجب

أطفالاً وكانت ثروته أقل من خمسين بقرة فهو فقير، لذلك فإن دعاءهم الأثير هو أن يمنحهم الله الأبقار والأطفال، وهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن الإله قد وهبهم كل البقر الذي على الأرض، لذلك فإن سرقة الماشية من القبائل الأخرى هي حلال لأنها استعادة لحقوق مغتصبة، أو هي بضاعتهم ردت إليهم.

مجتمع الماساي تحكمه قوانين شفهية يطبقها كبار السن الذين يحظون باحترام واسع من باقي أفراد القبيلة، ويتم التحقيق في النزاعات التي تنشب عن طريق مجلس عرفي يقوم بتغريم المخطئ كمية من الأبقار تتناسب مع حجم الجرم، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الديانة التي يؤمن بها الماساي تنتمي إلى مجموعة أديان التوحيد، وهي الأديان التي تؤمن بوجود عالم وراء الطبيعة، وهو عالم محجوب عن الطبيعة يشتمل على الآلهة والشياطين وأرواح الموتى، هذا العالم المحجوب يتم الاتصال به عن طريق الوحي الذي يتنزل على الكاهن أو العراف أو النبي، وفوق كل تلك المنظومة الغيبية يتربع الإله الواحد «إنكاي» ذو الطبيعة المزدوجة، «إنكاي» الطيب الخيِّر، وهنا نلاحظ أنه أسود اللون مثل شعبه، وقد آلى على نفسه أن يوفر للماساي أمطارًا مناسبة ويساعدهم في الحرب، أما إنكاي الأحمر فإن لونه مثل لون الغرباء، لذلك فهو إله الحقد والانتقام.

وعند مداخل مدينة دودوما يتناثر بعض أفراد الماساي من كبار السن الذين يبيعون أدوية ومركبات نباتية، وللماساي عند أهل تنزانيا شهرة في الطب، وقد روى لي بعض المرضى أن الماساي يصنعون دواء قويًّا لمعالجة الكحة وضيق التنفس، وقد علمت من الشيوخ الذين جالستهم أن دفن الميت عند الماساي قاصر على رؤساء العشائر؛ لأنهم يعتقدون أن دفن الجثث يضر التربة، لذلك فهم يتركون موتاهم للضباع التي تأكل الجيف وتنظف البيئة، والجثة التي لا تأكلها الضباع تعتبر جثة إنسان آثم، يجلب لأهله الخزي والعار، لذلك يلجأ بعضهم إلى وضع شحم الخراف ودماء البقر فوق الجثة كي يغري الضباع بأكلها، وذلك من أعجب ما وجدته في تنزانيا.

عجيبة أخرى وجدتها عند الماساي، وهي أنهم يحتفلون بطهارة الذكر ولا أدري من أين جاءهم هذا الطقس حتى أصبح واجبًا عندهم، ويجب على الذكر ألا يتألم أثناء عملية الطهارة حتى لا يجلب العار لأهله، وبعد تمام العملية يعتبر الذكر رجلاً مكتملاً صالحًا لأن ينضم إلى فئة المحاربين، وطهارة البنت شائعة عندهم أيضًا، وتتم عند سن بلوغ الفتاة حيث يقام احتفال جماعي لطهارة الأولاد والبنات، وطهارة البنت تعني أنها جاهزة للزواج، وفي العادة لا يؤخذ رأي البنت في زوج المستقبل ما دام قادرًا على دفع كمية مناسبة من الأبقار

مهرًا لها، لكن للمرأة الحق في تعدد الأزواج كما للرجل الحق في تعدد الزوجات وبدون حد أقصى ما دام البقر متوافرًا وتلك عجيبة من عجائب القوم هنا، ومن المعتاد أن يمنح رجل الماساي سريره للضيف، ولكن من حق الزوجة أن تقرر إذا كانت ترغب في النوم مع الضيف أم لا، وإذا قبلت فإن الطفل الذي ينتج عن هذه المعاشرة ينسب إلى الزوج لا إلى الضيف، وهو سلوك يشبه نوعًا من النكاح كان موجودًا لدى عرب الجاهلية، فقد ورد في الأثر أن نكاح الاستبضاع كان معروفًا في الجاهلية، وفيه أن الرجل يرسل امرأته إلى رجل شريف ويقول لها: اذهبي استبضعي منه، يعني مكنيه من نفسك حتى تعلقي بولد؛ ليكون ولدًا لنا، ويكون فيه أفعال من أفعال ذلك الشريف من شجاعة أو كرم أو بسالة أو قوة، ويبدو أن الماساي يستبضعون، لكن هذه المفاهيم تجعل طهارة الأنثى عند الماساي غريبة وغير مفهومة، فأنصار طهارة الأنثى في مجتمعاتنا يعتقدون أن قطع البظر يقلل من الرغبة الجنسية لدى الفتاة، وبالتالي يحمي عفتها، ومادام الماساي يستبضعون، ويسمحون للمرأة بتعدد الأزواج، فما الداعي إذن لطهارة الأنثى أو لحديث العفة؟

❀ ❀ ❀

ويسود بين الماساي اعتقاد أن الرجل الحق يجب أن يقتل أسدًا قبل أن يتم ختانه؛ إذ إن قتل الأسد يمنح الشاب من الماساي شرفًا وتقديرًا بين عشيرته ويعبر به إلى عالم الرجولة، وليس من المروءة عندهم قتل الأسد العجوز أو المريض، وقد سألت العديد من أفراد الماساي الذين التقيتهم إن كان قد قتل أسدًا فلاحظت أن جميعهم يجيبون بالنفي في سرعة وحسم، وقد فسر لي صديقي التنزاني المستر «مسويا» خبير الكمبيوتر أن هذا النفي الحاسم يعود إلى أن القانون يجرم صيد الأسود في تنزانيا، وأن أفراد الماساي يخشون الاعتراف أمامي بصيد الأسد - وخصوصًا وأنني أجنبي - لأن ذلك قد يعرضهم للمساءلة القانونية، وإن كان صيد الأسود من قبل الماساي لا يزال يحدث سرًّا حسب التقارير الرسمية.

أفراد من الماساي بحرابهم وملابسهم التقليدية.

ويحق للماساي أن يتباهوا بأنهم لم يتم استعبادهم كما حدث لغيرهم من الأفارقة، إذ لم يستطع قراصنة العبيد التغلب على محاربي الماساي الأشداء الذين يشكلون جيشًا شبه نظاميٍّ يستند إلى درجة عالية من التماسك القبلي، وبهذا التنظيم أفلت أفراد الماساي من الاستعباد، لكنهم لم يستطيعوا الإفلات من الأوبئة التي جلبها الرجل الأبيض معه، ففي الفترة من عام 1883 إلى عام 1902 ناحت النائحات في أرض القبيلة المزركشة المحبة للأفراح، إذ تفشت في أرض الماساي أوبئة الالتهاب الرئوي والجدري والطاعون البقري، فهلكت نصف الحيوانات البرية، و90٪ من ماشية الماساي، ومات ثلثا أفراد القبيلة.

❀ ❀ ❀

لم تكد القبيلة المنكوبة تلملم أحزانها حتى وجدت الألمان وقد تمكنوا من احتلال تنجانيقا عام 1889، وداسوا بأحذيتهم الثقيلة أرض الماساي، ولما هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ورثت إنجلترا تنجانيقا اعتبارًا من عام 1916، وبعد معارك صغيرة مع محاربي الماساي أشبه بالمعارك التي قامت في أمريكا بين الهنود الحمر والرجل الأبيض، استسلم شيوخ الماساي وعقدوا مع السلطات الإنجليزية عدة اتفاقيات لتنظيم إنشاء المحميات التي تحمي الحياة البرية، والتي تعرف في إفريقيا باسم (National parks) لتكون حدائق مفتوحة للسياح.

ومع الاستعمار جاءت أسواقه الرأسمالية التي تعتمد على النقود كوسيط أساسي في التبادل السلعي، لتطرد الاقتصاد الطبيعي للماساي الذي يعتمد على المقايضة، ومع الإنتاج الرأسمالي الكثيف والمتنوع نزلت عشائر الماساي إلى السوق تبيع الأبقار واللبن والمعادن وتشتري الأقمشة والأحذية

والأساور والخرز الملون، واستطاع بعض تجار الماساي تكوين ثروة من تلك التجارة جعلتهم ينشئون مراكز تجارية ويندمجون في الحياة المدنية، تاركين وراءهم حياة البداوة التي لا تزال القبيلة تحياها، واعتنقت بعض عشائر الماساي الديانة المسيحية وبدرجة أقل دخل بعضهم الإسلام. أما محاربو الماساي من الشباب الذين كانت تزهو بهم القبيلة فقد أصبحوا يتجولون في الأماكن السياحية بكامل زينتهم التقليدية لالتقاط الصور مع السياح لقاء أجر.

❀ ❀ ❀

زنجبار .. لؤلؤة إفريقيا وريحانة العرب

في زيارتي الأولى إلى زنزبار التي تشكل إقليمًا اتحاديًّا مع تنجانيقا، أدهشني أن وجدت القوم في هذه الجزيرة يلبسون ثيابًا عربيةً، ويتسمون بأسماء العرب، ودخلت قصورًا عربية، لا تزال دافئة بأنفاس سادتها من العرب، فاضطررت إلى قطع الرحلة بعد أن ثقلت عليَّ الأسئلة، وذهبت أفتش في المصادر التاريخية قبل أن أقوم بزيارتي الثانية، وهاكم بعض ما لملمته من بطون الكتب، وبعض ما رأيته رأي العين.

أطلق العرب على جزر ذلك الأرخبيل اسم (بر الزنج) ثم تصحف القول إلى (زنج بر) ينطقها المتعجل (زنجبار) وينطقها الإنجليزي (زنزبار) وتلك هي التسمية الأخيرة للجزيرة.

تتكون زنزبار من جزيرتي (أنجوجا) و(بيمبا)، أنجوجا هي الكبرى (طولها 85 كم وعرضها 40 كم) وهي عاصمة أرخبيل زنزبار. بينما جزيرة بيمبا (طولها 78 كم وعرضها 23 كم) لكنها ألطف هواءً؛ وأغزر أمطارًا، يطلق عليها الجزيرة الخضراء، زنزبار هي أرض القرنفل، وهو المعروف عند عرب الخليج باسم (المسمار) يضيفه القوم إلى القهوة العربية وقد يخلط بالماء عند طبخ الأرز أو اللحوم أو الدجاج، ومنه تستخرج زيوت عطرية، تدخل في صناعة العطور وفي الكثير من الأغراض الطبية، وقد يستخدم مع بعض الخلطات التي توضع على الشعر فتمنحه النعومة والطراوة، ومن أشجار القرنفل يوجد ثلاثة ملايين شجرة في جزيرة بيمبا، أما أنجوجا ففيها مليون شجرة فقط، يكوِّنان معًا ثلثي احتياجات العالم من القرنفل، تتناثر حول الجزيرتين الكبيرتين جزر أخرى، تبلغ الخمسين، منها ما فيه بعض السكان ومنها ما هو غير مسكون لأن مياه المحيط تغمره في بعض فصول السنة، ومنها ما هو صغير فلا يتجاوز مساحة الغرفة، من فوق ظهر المركب تبدو هذه الجزر الصغيرة نقاطًا خضرًا ترقص حولها وتلعب معها مياه المحيط الهندي الزرقاء، إن ولت مياه المحيط هاربة، جرت الخضرة خلفها، وإن أقبلت ملاعبة، اختفت الخضرة تحتها **(صنع الله الذي أتقن كل شيء)**.

جزيرة زنزبار كما تبدو من الجو.

جزيرة غير مأهولة من أرخبيل زنزبار.

❀ ❀ ❀

حكم سلاطين عمان زنجبار قرابة الألف عام، عدا فترة من الاحتلال البرتغالي للجزيرة امتدت من 1502 حتى 1698 ثم استردها العمانيون، احتلها الإنجليز في القرن التاسع عشر من جملة ما احتلوا من دول العالم، وتركوا فوقها الحكم السلطاني، استقلت عن بريطانيا في 19 ديسمبر 1963، وقبل مرور شهر على الاستقلال، ثار الأفارقة بقيادة عبيد كرومي

ضد العرب والهنود، فقتلوا ما يزيد على عشرين ألفًا من العرب، ونهبوا ممتلكاتهم، فهرب آخر السلاطين العرب الذين حكموا زنجبار (جمشيد بن عبدالله) في باخرته إلى بومباسا في كينيا، ومنها إلى لندن (إذ لم يفكر في العودة إلى العرب، رغم أن أنور السادات قد زار زنزبار في 1962 موفدًا من

السلطان جمشيد بن عبد الله
آخر السلاطين العرب الذين حكموا زنزبار.

عبد الناصر وعرض على السلطان جمشيد تقديم مساعدة مصرية للسلطنة بعد الاستقلال) ولا يزال السلطان حيًّا يرزق، وسمعت أنه بصحة جيدة، أما من بقي من العرب أحياء فقد فروا إلى تنجانيقا، أو عادوا إلى عمان، أو تبعثروا في البلاد، فغربت مع رحيلهم شمس عربية أخرى، وفي 29 إبريل 1964 اتحدت زنزبار مع تنجانيقا ليكوِّنا معًا جمهورية (تنزانيا) مع احتفاظ زنزبار بمساحة كبيرة من الحكم الذاتي، حيث إن لها رئيسًا ومجلس وزراء وبرلمانًا ودستورًا، تاركة للحكومة الاتحادية إدارة السياسة الخارجية والدفاع والأمن والتعليم. تبعد زنزبار مسافة 35 كم من شاطئ تنجانيقا إذا أنت رسمت خطًّا مباشرًا يعبر المحيط الهندي، بينما المسافة المائلة من ميناء دار السلام إلى ميناء زنزبار 76كم، يقطعها القارب السريع في ساعتين وتقطعها الطائرة في ربع ساعة، ثم إني لما عزمت على زيارة زنزبار في الشهر الماضي (فبراير 2007)، ركبت البحر المالح من ميناء دار السلام في 16 منه، وفي العاشرة صباحًا كنت في زنزبار، إجراءات الدخول بسيطة، والناس على فقرهم يبتسمون دائمًا، دقائق وكنت في الفندق الذي تفضل بالحجز لنا فيه الأستاذ عبد الكريم شحات،من القنصلية المصرية في زنزبار، فكأنما التاريخ يترصدني، إذ وجدت واجهة الفندق كأنها واجهة قصر عربي، نعم هو قصر عربي، وها هي فسقية حولها مجلس عربي، وبعض غرف على الطراز العربي واسعة ذات أسقف مرتفعة، وأبواب مصفوفة من الخشب المحفور بعناية، ونمارق مبثوثة، وسلم خشبي ذي درابزين رائع التشكيل، وقد ألحق بالفندق في تاريخ لاحق غرف وقاعات للمؤتمرات، وصالات للحفلات كلها تبرق بالحداثة، لكن ليس فيها عراقة التاريخ، لم يطل عجبي، فقد وجدت قصة الفندق في ورقة الترحيب التي تضعها تلك الفنادق للنزلاء الجدد، فإذا أنا أمام مجد عربي غابر، فالقسم العربي من الفندق كان بيتًا بناه سنة 1800 رجل الأعمال العربي مسيلم بن محمود، ثم باعه الورثة إلى الشيخ عبد الله بن سالم البرواني سنة 1894 الذي باعه إلى رجل أعمال يوناني سنة 1914، وفي سنة 1980 قام أحمد بن نصُّور

المزروعي بشراء المبنى، واستحدث فيه تغييرات وتوسعات حديثة فاقت المبنى الأصلي، وافتتحه فندقًا باسم أولاد المزروعي Mazsons Hotel.

حكاية أولاد المزروعي سوف تستدعي إلى الذاكرة صفحة أخرى من تاريخ العرب في شرق إفريقيا، إذ إن أسرة المزروعي هي أسرة عربية عريقة هاجرت من عمان إلى ساحل إفريقيا الشرقي في عام 1600، أي حينما كان هذا الساحل تحت سيطرة البرتغاليين، الذين سبق القول إنهم قد وضعوا أيديهم على جزيرة زنجبار اعتبارًا من سنة 1503، ثم امتد نفوذهم إلى مومباسا التي تقع في كينيا حاليًّا عام 1506، وقد انصرف اهتمام البرتغاليين أساسًا إلى نهب مناجم الذهب والسيطرة على تجارة العاج والأبنوس وخطف العبيد، وهجرة المزارع إلى مناطق إفريقية تحت حكم البرتغال تؤكد أن البرتغاليين لم يعترضوا على الوجود العربي ما دام يتماشى مع مصالحهم في نهب تلك البلاد، عمومًا فإنه بعد قرابة قرن ونصف من السيطرة البرتغالية، قام اليعاربة سلاطين عمان بتحريك أساطيلهم لطرد البرتغاليين من سواحل إفريقيا الشرقية، واعتبارًا من سنة 1650 قامت البحرية العمانية إبان حكم الإمام سلطان بن سيف بضرب الحاميات البرتغالية في زنجبار، واستمرت عمان تقضم من أملاك الإمبراطورية البرتغالية، وأخذ الوجود البرتغالي يتقلص حتى اقتصر وجودهم على موزمبيق التي استمرت بأيديهم حتي مطلع القرن العشرين، ومرة أخرى تمددت أملاك العمانيين الإفريقية إبان حكم اليعاربة، لكن السلاطين من آل يعرب جرت عليهم أحكام الزمان فضعفت قوتهم، فأوكلوا حكم مومباسا إلى قبيلة المـزارع مقابل مبلـغ مالي يدفع سـنويًّا، وهكذا بعـد قرابـة مائة عام من هجرة المـزارع إلى شرق إفريقيا، تولى شيخهم ناصر بن عبدالله المزروعي حكم مومباسا من قبل سلاطين عمان، وحينما انتقل حكم عمان من اليعاربة إلى البوسعيد، أعلن محمد بن عثمان المزروعي استقلاله ورفض التبعية لعمان، فعزله السلطان أحمد بن سعيد وأرسل إليه واليه سيف بن خلف ليتولى حكم مومباسا لعدة شهور، قبل أن يقتله علي بن عثمان المزروعي ، وذلك فاصل آخر من الصراع العربي العربي الذي سوف تتكرر مشاهده لينتهي الأمر باندثار الحكم العربي لهذه المناطق، عمومًا فإن أبناء المزروعي ظلوا يتوارثون حكم مومباسا حتى قضى السلطان سعيد بن سلطان على حكمهم عام 1837، لكن وجودهم ونفوذهم المحلي كتجار ومثقفين استمر في المنطقة، وقد أصدر الشيخ الأمين بن علي المزروعي جريدة الإصلاح سنة 1932، وهأنا أنزل في فندق تعود ملكيته إلى أبناء المزروعي.

❀ ❀ ❀

نهار هذا اليوم يوشك على الرحيل، وها هي شمس المحيط الهندي تنزلق إلى الماء، فرأيت أن أخرج وزوجتي إلى المدينة الحجرية التي اعتبرتها اليونسكو من التراث الإنساني، وهي عبارة عن ألف وسبعمائة بيت، شيدها العرب والفرس والهنود، على فترات تاريخية متعاقبة حينما شرعوا في تعمير تلك الجزيرة، وكأنهم انفعلوا بروعــة المكــان

أسلوب فريد في التعامل مع الخشب.

فابتدعـوا أشكـالاًرائعة من زخرفة الأبواب، وكأنهم أيضًا قد جمعهم الإحساس بالغربة،

مبنى قديم من المدينة الحجرية
(قصر وفيه ساعة).

فجعلوا بيوتهم متراصة وحواريهم ضيقة ملوية رغم اتساع الجزيرة، كأنما الرواد الأوائل الذين استوطنوا الجزيرة وبنوا عمارتها الحجرية قد استشعروا في تقارب البيوت دفئًا إنسانيًّا يبدد برودة الغربة، الأبواب كلها من الخشب المحفور، إذ كان مستوى الحفر على الباب يعكس المكانة الاجتماعية لصاحبه، وقد ابتكر أهل زنزبار أسلوبًا في الحفر يمزج الثقافات الثلاث ويعكس التجريد الإسلامي: آيات من القرآن الكريم، وزخرفات من أشكال النباتات والأوراق المحلية. أقدم الأبواب المعروفة هنا يعود إلى سنة 1694، وإن كان هناك خلاف بين علماء الآثار على تاريخ بناء المدينة، بعضهم يقول إن البناء ابتدأ في القرن العاشر الميلادي، وبعضهم يقول في القرن الثاني عشر، لا ينزعج الناس في زنزبار ممن يقف على أبوابهم ليتأملها، شوارعهم ضيقة مبلطة، لا يزيد عرضها على المتر، تنحني بمودة كأهلها، يصل عدد سكان زنزبــار إلى مليـون نســمة، يشكل المسلمــون أكثر من 90٪ منهم، وأكثر أسمائهم خميس وجمعة ورجب ورمضان، أغلبهم من الخوارج الإباضية، ومنهم كان حكام الجزيرة، وللشيعة وجود محسوس، ولهم مساجد وحسينيات، لكن المدينة تملك طلسمًا سحريًّا يؤلف بين قلوب أهلها، هذا أذان

المسلمين، وهذا جرس الكنيسة، وترى فيها حشود الهندوس يتوجهون إلى معابدهم، ففي المدينة ستون مسجدًا وستة معابد وكنيسة إنجيلية وكنيسة كاثوليكية.

الدين للديــان جلَّ جلالــه لو شاء ربك وحد الأقواما

❀ ❀ ❀

اللغة الأساسية هنا هي اللغة السواحلية، التسمية كما ينطقها الأفارقة مشتقة من كلمة «سواحل» العربية، يقول العالمون بالسواحلية إن 25٪ من مفرداتها عربية، بينما يرتفع البعض بالنسبة إلى 75٪ اختلطت العربية بلغات إفريقية ودخلتها بعض مفردات إنجليزية، يتكلمها خمسون مليون نسمة من سكان السواحل الشرقية لإفريقيا وهي اللغة الرسمية لكينيا وتنزانيا، كانت تكتب بالأحرف العربية وهي حاليًّا تكتب باللاتينية، لكن الأذن لا تزال تميِّز الكثير من الألفاظ العربية، ففي تنزانيا المتحدة يمثل المسلمون 35٪ من السكان، والمسيحيون 45٪ وأصحاب الديانات الإفريقية 20٪ ولكن الجميع يهنئونك في الأعياد الإسلامية بقولهم (من الفايزين) ولا تزال المصطلحات الشرعية: صلاة، صوم، حج، زكاة، حراميشا (حرام)، حلاليشا (حلال)، كافيرى (كافر)، سامحيني (سامحني)، نشكر (أشكرك)، أحسنت سانا (أحسنت صنعًا)، مراحيموا (المرحوم)، فاهموا (فهمت)، أمَّا وزارة الصحة في دولة تنزانيا المتحدة فإن اسمها هو (وزارة ياعافية).

لكن كيف أتى العرب ونشروا لغتهم على الساحل الإفريقي وفي أرخبيل زنزبار؟ يقول الإخباريون إنه في سنة 84 هجرية في عهد الخليفة عبدالله بن مروان، حاول الحجاج بن يوسف الثقفي ضمَّ عُمان إلى الدولة الأمــوية، وكان يحكمهــا سليمــان وسعيد ابنا عبيد الجلندي، وقد امتنعــا على الحجـاج، فأرسـل إليهمــا جيشًا لا حول لهما به فآثرا السلامة وحملا الذراري وخرجا بمن تبعهما من قومهما فلحقوا جميعًا بأرض الزنج، ويستنتج المؤرخون أن هذه الهجرة كانت تستند على وجود عربي سابق في شرق إفريقيا، أما الإدريسي المتوفى سنة 560 هجرية فيقول في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) إنه زار مدينة (منسبة) وهي مومباسا الواقعة حاليًّا على الساحل الشرقي في كينيا، وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة،

فلذلك متى عاينـوا رجلاً من العــرب تاجرًا أو مسافرًا سجدوا له وعظموا شأنه وقالوا بكلامهم هنيئًا لكم يا أهل بلاد التمر، وإن المسافرين في بلادهم يسترقُّون أبناء الزنج بالتمر يخدعونهم به فينقلونهم من مكان إلى مكان حتى يقبضوا عليهم ويخرجوهم من بلادهم إلى البلاد التي يكونون بها، وأهل بلاد الزنج كثيرو العَدد قليلو العُدد (يقصد قليلو العُدة) وصاحب جزيرة كيش من بحر عمان يغزو بمراكبه ويضيف «ومن جزائر الرانج الواقعة في هذا الجزء الذي نتكلم عنه جزيرة الإنجية ومدينتها التي يسكن فيها أهل هذه الجزيرة تسمى الأنقوجة (أنجوجا) بلغة أهل الرانج وأهلها أخلاط والغالب عليهم أنهم مسلمون» والغالب على نص الإدريسي أنه نص ساذج، لا يستند إلى المعاينة فيما يتعلق بسلوك الزنوج أمام العرب، وإنما يعتمد على روايات تفتقد المنطق، فالتمر لم يكن يومًا وسيلة لاسترقاق الزنوج، لكن الإدريسي ربما دخلت على عقله روايات شعبية، تنظر إلى غير العرب وخصوصًا الزنوج على أنهم قنائص، يمكن صيدها ما إن يلوِّح العربي بالتمر المجفف الذي كان العرب يقتاتون منه في ترحالهم، كأنما تمر العرب هو خلاصة الفاكهة، وقد وجدت فى إفريقيا أنواع عديدة من الفواكه الرائعة التي تنبتها الأرض دون جهد بشري، وبعضها شديد الحلاوة، فلم يكن الأفارقة في احتياج لتمر العرب المجفف، لكنها عادة عربية قديمة في تضخيم الذات، لكني أستنتج من رواية الإدريسي أنه رأى وجودًا عربيًّا وإسلاميًّا محسوسًا حينما زار تلك الأماكن، أما ابن بطوطة فقد كان أكثر دقة من الإدريسي، وقد كتب في القرن الثامن الهجري عن ساحل إفريقيا الشرقية في كتابه (رحلات ابن بطوطة ص122): «ثم ركبت من مدينة مقديشيو متوجهًا إلى بلاد السواحل قاصدًا مدينة كلوا من بلاد الزنوج، فوصلنا إلى جزيرة منبسي وضبط اسمها ميم مفتوحة ونون مسكنة وباء موحدة مفتوحة وسين مهملة مفتوحة وياء، وهي كبيرة، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر، ولا بر لها، وأشجارها الموز والليمون والأترج، ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولها نوى كنواه لكنها شديدة الحلاوة، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة، وإنما يجلب إليهم من السواحل، وأكثر طعامهم الموز والسمك، وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان» فلما وصل ابن بطوطة إلى مدينة كلوا كتب عنها «وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن. ويكنى أيضًا أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم، فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة

على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم (يقصد الأشراف الذين ينتسبون إلى سلالة الرسول)، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها»، المسلمون جاءوا هنا إذن ونشروا الإسلام في الساحل الشرقي لإفريقيا وأرخبيل زنجبار منذ القرن الأول الهجري، ويعتقد المؤرخون أن الموجة الأولى لنشر الدعوة بدأت في عهد أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه .

حواري زنجبار تستدير بلا هدف، والماشي فيها يشعر بأنفاس التاريخ، هذه المنازل التي تعلوها السكينة، كم سكنها من أقوام أتوا من حضارات بعيدة، فهل أضناهم الشوق إلى الجذور أم اعتصرتهم الغربة فآنستهم الحزازات الدينية والعِرقية والثقافية وصنعت منهم هذه العجينة المتسامحة المتساندة؟ تسحبنا الشوارع الضيقة إلى شارع أوسع يسير بمحاذاة المحيط فإذا أنا أمام قلعة زنجبار المهيبة، بناها عرب البوسعيد في الفترة من 1698 إلى 1701 على أنقاض كنيسة برتغالية، في الأركان الأربعة أبراج دائرية تنصب فيها المدافع، وتربط بين أبراجها ممرات للمقاتلين ذات حوائط مرتفعة، وفتحات لإطلاق النار، كان العرب يجمعون السكان ويتحصنون داخل القلعة عند وقوع غزو خارجي، داخل القلعة مسرح على الطراز الروماني بحالة جيدة، ربما كان يستخدم في الاحتفالات أيام المجد، تحولت القلعة سنة 1928 إلى مبنى سكة حديد زنزبار، لكن السكة الحديد اختفت مع تلاشي الأهمية السياسية والتجارية للجزيرة، وتلك قصة سنحكيها حينما نستعرض ملامح تاريخ زنجبار، أما أبراج القلعة فقد تحولت إلى مراسم للفنانين، والغرف التي استخدمت كمخازن للطعام والسلاح أصبحت بازارات تبيع المصنوعات اليدوية والملابس الإفريقية التي يصنعونها بمهارة، كل شيء هنا يخضع للفصال، والأيمان المغلظة يعقبها التراجع، وذلك مسلك يؤكد الأصول العربية الصميمة لأهل الجزيرة، فهل من مجادل؟ يقسمون كما نقسم ويكذبون كما نكذب، وفي ركن من القلعة كافتيريا مبنية من الأشجار،

الملامح عربية والملابس عربية
والجلسة على عتبة الدار في زنزبار.

أما الطاولات والكراسي والديكورات فهي من الأخشاب المعشقة بذوق فنان، النبات حيًّا أو مجدولاً هو جزء من ثقافة المكان، على الباب ونحن خارجون لقينا جمعــة الوكيــل السياحي وهو شاب أسمـر وسيم لا تفارقه الابتسامة، اتفقت معه أن يأتيني في الصباح بسيارة ومرشد سياحي، أمامي مباشرة شاطئ الجزيرة يتوهج بالنور، ومع المساء تمتد الطاولات والكراسي البلاستيكية على الشاطئ، ها قد حضر الطهاة بعرباتهم المتنقلة ومواقد الفحم يعدون العشاء للزائرين: كل أنواع السمك المشوي والمقلي والإستاكوزا حتى الأخطبوط المشوي، دجاج وشرائح لحم، مع أجواد أنواع البهارات، ورجل قد أحضر معه عصارة قصب يديرها باليد مع صبي يلقم الأعواد، هنا يصنعون نوعًا مميزًا من البتسا، أصرت زوجتي أن تعرف من البائع سرَّ الصنعة، أخذت تشرح لي بجدية خطوات الإعداد، وتلك كانت النتيجة الأخصــب لهذا الاحتــكاك الحضاري، ولدى عودتي للفندق حضــر منــدوب من القنصليــة المصـــرية للترحيب بي، ذلك اهتمام لم أعهده، ولا أريد أن أتمادى في الثناء حتى لا أحسد وزارة الخارجية المصرية كما حسدتها من قبل،

تحضير العشاء على أحد شواطئ زنزبار

فقد أثنيت في مقال على موظفي الخارجية وقلت إنهم خير موظفي الأرض وإنهم من طينة غير طينة باقي موظفي مصر؛ سرعة في الإنجاز واحترام للوقت، وفي أول زيارة لي لموظفي الصندوق المصري للتعاون الفني مع إفريقيا، وجدتهم قد تعفروا نهائيًّا بتراب الوطن، لا فرق بينهم وبين موظفي

وزارة الصحة، الطينة من الطينة واللتة من العجينة. ومع العشاء على شاطئ المحيط الهندي انتهى يومنا الأول على أرض القرنفل.

❀ ❀ ❀

في اليوم الثاني حضر جمعة ومعــه المرشــد السياحــي وكـان اسمــه المستــر إكسوچيـن،أما سائق عربتنا فهو المستر محمد، والراكب يتجه نحو سوق العبيد، تلك الجزيرة كانت أكبر سوق للعبيد في العالم، بيع فيها الزنوج كما تباع الأبقار، بالجزيرة بيوت عديدة استخدمت لتجميع وسجن العبيد، كان تجَّار العبيد يحتفظون بهم في تلك البيوت، ولا يأخذون إلى السوق إلا عددًا محدودًا يتم إيداعه في سجن سوق العبيد؛ تمهيدًا لعرضه في اليوم التالي، وها هو السجن الذي يساق إليه العبيد، يتسع في أقصى طاقته إلى مائة نفس، فالعرض

صورة حقيقية ونادرة للعبيد مسلسلين ووراءهم رجل ببندقية.

الكثير قد يبخس الثمن، يقودك المدخل إلى صالة أصبحت معرضًا للصور التي تجسد فعل البشر بالبشر، درجات قليلة بائسة تنزل بك إلى خطيئة التاريخ، غرفتان مدفونتان في الأرض، واحدة للرجال،

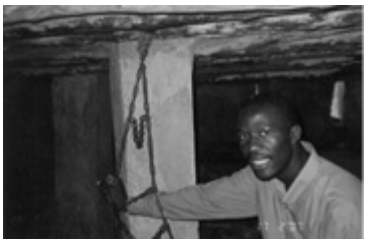

المرشد السياحي يوضح كيف كان يتم ربط العبيد من رقابهم.

وأخرى للحريم والأطفال، تفصلهما غرفة للحرس المسلحين، كان العبد يتم تقييده من اليدين والقدمين والرقبة ويطرح في الغرفة، سقف الغرفة منخفض، فإن وقف السجين أو تحرك لا بد أن ينحني على سبيل الإذلال وقتل الروح، مصطبتان في كل غرفة يفصلهما ممر ضيق يقضي فيه الأسرى حاجتهم، وفي أعلى حائط الغرفة فتحات دائرية للتهوية. في الغد ينصب السوق ويعقد المزاد فأي مصير ينتظر هؤلاء الذين قضوا شبابهم يمرحون في الغابة مع النبات والطير والوحش وما خلق الرحمن؟! وإلى أي بلاد ستحملهم سفن تعوي ماكينتها بالمازوت إذا احترق؟! أمام السجن يوجد فضاء السوق، في الماضي كانت تتوسطه شجرة يجلس تحتها تجار إنجليز متعجرفون لمعاينة البضاعة، يقاد العبيد مسلسلين، حيث تقتضي طقوس المعاينة جلد العبد حتى يسيل الدم من ظهره، لو بكى أو انتفض يذبح أمام باقي العبيد، فيكون جزع يموت معه الإحساس بالألم عند الباقين، يقول الإفريقي الأسود: زرعت قلبي تحت شجرة في غابة باجامويو على بحيرة تنجانيقا، وهاكم جسدي، فلتأكلوه يا أهل الحضارة.

كانت أساطيل بريطانيا العظمى تجوب المحيط فتكتشف جزرًا عامرة بالنبات والحيوان، قليلة السكان أو بلا سكان، وبعد رفع العلم، ورسم السيادة، يأخذون البشر عبيدًا من إفريقيا، بعض السفن تلقي حمولتها في الجزر المكتشفة، تزرعها بشرًا لتولد مجتمعات تكد من أجل رفاهية أوربا أو أمريكا التي توسعت في زراعة القطن، فانفتحت شهيتها إلى سواعد العبيد، الحقول الأمريكية شاسعة لا يدركها البصر، والزراعات الممتدة تتخللها سطور سوداء مقيدة القدمين محنية الظهر تزرع أو تجني لتصنع الحلم الأمريكي. (باجامويو) هو اسم منطقة على بحيرة تنجانيقا، وكلمة (باجامويو) في اللغة الإفريقية تعني (اترك قلبك هنا) .. من هنا رحلة العبودية تبدأ، الزنوج هم الذين اصطادوا الزنوج، شيوخ القبائل الزنجية والحكام المحليون كانوا يخوضون المعارك ويخطفون غيرهم من الأفارقة، يقيدونهم حتى يأتي التجار للشراء. هكذا جرى تقسيم العمل: الأفارقة يصطادون بعضهم البعض، والعرب هم الوسطاء التجاريون، والأوربيون هم الذين يشترون البضاعة البشرية - الطلب هو الذي يخلق السلعة، وقد

كيف تم تحميل الأفارقة في السفن.

تطلب النمو الرأسمالي سلعًا بشرية (فالرأسمالية - كما قال كارل ماركس- تنزف دمًا من مسامها)، سمعت في إفريقيا موسيقى تشق القلب، يأتي صوت المغني من عمق الغابة متوجعًا مما لقيه من ظلم، تقول الإحصائيات إن عدد الأفارقة الذين اختطفوا بلغ 40 مليونًا، مات بعضهم في ظروف قاسية، لكن اليونسكو سنة 1987 قدرت أن إفريقيا فقدت في تجارة الرقيق 210 ملايين نسمة، هذا التفاوت في التقدير يعود إلى الطابع الهمجي الذي تم به قنص البشر ونقلهم، فالموتى والمرضى كان يتم إلقاؤهم في البحر، فمات خلق كثير. بعد عقود من اقتلاع الأفارقة من موطنهم تشبعت الأسواق الأوربية، لم تعد هذه البضاعة مطلوبة، بل أصبح الاستمرار في ضخ العبيد يشكل عبئًا اجتماعيًّا على المدن الأوربية التي راحت تتشكل، فاللعنة على من يتاجر بالبشر، وهذا هو العجب في الثقافة الأوربية، فهي تحمي الأسواق من تجارة العبيد بنفس القوة التي اغترفت بها هؤلاء العبيد واقتلعتهم من جذورهم، لقد استدارت القوانين الأوربية والتوت كي تحمي الأسواق من الإغراق بالسلعة البشرية، ذلك الإغراق الذي قد يؤدي إلى انتشار البطالة واختلال الأمن.

زمان العبودية - أطفال وشباب للبيع.

نحن الآن في بداية القرن التاسع عشر، وها هي القوانين البريطانية تحرم الرق داخل إنجلترا سنة 1807، سبقتها فرنسا في التحريم بعشر سنوات، واحتاجت أمريكا عدة عقود أخرى من تجارة الرقيق، حتى إذا امتلأت مزارعها استيقظت نزعتها الإنسانية، هذا أوان الكلام عن حقوق الإنسان، فلتتق الحضارة الغربية ربَّها، فقد اقتضت قوانين التطور الرأسمالي وشروط السوق من عرض وطلب أن تتذكر أوربا دعـوة المســيح عن التسـامح والمحبـة، وها هم المبشرون المسيحيون يجوبون إفريقيا يمهدون طريق الرب، وينشرون تعاليم ابن الإنسان.

❀ ❀ ❀

أملاك سلاطين عمان امتدت إلى مومباسا في كينيا، فقد استطاع أعظم سلاطينهم سعيد بن سلطان البوسعيدي (وهو أحد أجداد سلطان عمان الحالي قابوس بن سعيد) طرد المزاريع الذين كانوا يحكمون مومباسا، وبذلك انفتح شرق إفريقيا أمام هذا السلطان الهمام، فامتد نفوذه إلى سواحل الصومال، وسيطر على موانئها الأساسية وربطها بنظامه الاقتصادي، وسيطر على جزيرة مدغشقر في المحيط الهندي، وها هو السلطان ينتقل بحرًا لزيارة أملاكه في مومباسا وزنجبار، ليجد جزيرة زنجبار عامرة وهواءها نديًّا طيبًا، تذكر السلطان حر عاصمته مسقط، ذلك الحر الذي وصفه ابن بطوطة

بأنه (يذيب السيف في جرابه) فقرر أن ينقل عاصمة إمبراطوريته من مسقط إلى زنجبار سنة 1832، الطلب على العبيد يقل، ولكنه لم ينقطع، ولا يزال الدخل السنوي للسلطان من هذه التجارة ثمانين ألف جنيه إسترليني، السلطان سعيد عالي الهمة، حول الجزيرة من أكبر محطة للرقيق إلى أكبر سوق لتجارة العاج، قل صيد البشر؛ فزاد صيد الفيلة، وجلب السلطان إلى الجزيرة شجرة القرنفل، فأصبحت الجزيرة أكبر مصدر للقرنفل والعاج، لو دق السلطان العربي طبوله في زنجبار لرقص الأفارقة حول البحيرات الكبرى، لكنه حذر لا يتوغل للداخل، أسطول السلطان يبلغ 75 سفينة، وسفائنه مسلحة بالمدافع الحديثة، تحمل بضائعه إلى أوربا، السلطان يضبط الجمارك وينظم العملة في إمبراطوريته، وهو فاحش الثراء، جملة الخدم في قصره ألف شخص، وإنجلترا المطهرة لما اكتفت من تجارة العبيد عقدت مع السلطان سعيد اتفاقية سنة 1822 لمنع هذه التجارة، لكن التجارة تستمر خلسة ما دام الزبائن موجودين، السلطان يبدي إعجابه بتجربة مصر في التحديث التي يقودها محمد علي باشا، ثم إن العداء للوهابيين الذين ينتشرون في جزيرة العرب ويهددون مسقط يقرِّب بين الرجلين، ولما مات المدفعجي الكبير (قائد المدفعية) في أسطول السلطان، أرسل يطلب من محمد علي مدفعجيًّا، فاستجاب ساكن الجنان وأرسل له خبيرًا مصريًّا في المدافع (ترى لماذا نسي التاريخ اسم هذا المدفعجي المصري، وهل عاد إلى وطنه أم ذاب هو ونسله في هذه الجزيرة الساحرة؟!).

السلطان سعيد بن سلطان.

ها هي أمريكا اليافعة التي تغوي القلوب تمد بصرها إلى السلطنة قائلة: سوف نبيعك أيها السلطان أقمشة وأسلحة وأدوات منزلية، وسوف نشتري منك ما تنتجه بلادك، نريد تخفيضًا جمركيًّا متبادلاً، وأوضاعًا قانونية متماثلة

لقناصل بلدينا، نحن أرباب التجارة الحرة والبيزنس الحلال، فامنحنا امتياز الدولة الأولى بالرعاية، وذلك ما تحقق بموجب معاهدة بين البلدين وقعت سنة 1833، ومع توطد العلاقات أرسل السلطان سعيد سفينته (سلطانة) لزيارة ميناء نيويورك، وعلى متنها الحاج أحمد بن نعمان ممثلاً شخصيًّا لمولانا السلطان، ولأجل شراء الأسلحة التي تحتاجها السلطنة العمانية في صراعها ضد الوجود البرتغالي في موزمبيق، فغضبت إنجلترا الغيور واستاءت من المزاحمة الأمريكية، فذهبت تنصح وتحذر من المطامع الأمريكية، لكنها لم تلبث أن مالت حيث يميل الزمان فعقدت مع السلطان معاهدة مماثلة سنة 1839،ثم لحقتها فرنسا بمعاهدة شبيهة سنة 1844. الجزيرة الآن «تشغى» بالقناصل والمستكشفين وأبناء الرب، طال عمر السلطان وبلغت سنوات حكمه الخمسين، واتسعت دولته من بندر عباس على الساحل الشرقي للخليج العربي إلى زنجبار على الساحل الشرقي لإفريقيا بالإضافة إلى أرخبيل جزر القمر، وعندما نقل عاصمة حكمه من مسقط إلى زنجبار سنة 1832، أناب ابنه ثويني في حكم مسقط اعتبارًا من سنة 1833، ولما أثقلته السنون أناب ابنه ماجدًا في حكم زنزبار سنة 1854، السلطان لم ينجب من زوجته السيدة عزة بنت سيف بن الإمام أحمد البوسعيدي، ولم ينجب من الأميرة الإيرانية (شيزاده ميرا) التي قدمت إليه في خمسين من حاشيتها ورفضت ارتداء الحجاب العربي، فطلقها بعد عام (يقال إنها كانت امرأة فائقة الحسن شديدة الإسراف وكانت فساتينها مطرزة باللآلئ من الأعلى حتى الأسفل، وكانت إماؤها عند قيامهن بالتنظيف في الصباح يجدن كمية غير قليلة من اللآلئ مكان قعود السيدة الحسناء التي كانت ترفض استعادة تلك اللآلئ وهنا تتناثر بعض الحكايات حول تلك الأميرة التي تزوجت السلطان لثرائه بينما كانت تحب شخصًا آخر، وهناك رواية غير مؤكدة أن السلطان قد حاول قتلها في نوبة غضب أو غيرة بعد رجوعها من إحدى جولاتها في الجزيرة، فمنعه مرافقه سعيد النوبي، واكتفى السلطان بتطليقها وإعادتها إلى بلادها) لم يرزق الله السلطان الولد إلا من الجواري، وطبقًا لمذكرات ابنته الأميرة سلمى، فقد ترك أبوها عند وفاته سبعًا وسبعين جارية من جنسيات مختلفة: شركسيات وفارسيات وزنجيات وعربيات، كان يتقي بهن الفتنة وينجب منهن الأولاد، مما يعني أن الفروق العمرية بين أبناء السلطان وورثة دولته هي بالشهور فقط، إن لم تكن بالأيام، فلو مات السلطان فجأة، فمن المؤكد أننا سوف نشهد فاصلاً دمويًّا من الصراع على السلطة في

القصور الشرقية، تتداخل فيه التحالفات الدولية مع المصالح القبلية والعشائرية.

❀ ❀ ❀

وفــاة السلطان سعــيد

اليوم هو 19 أكتوبر سنة 1856، وقد حدث ما كنا نخشاه، إذ انتقل اليوم من دار الباطل إلى دار الحق السلطان سعيد بن سلطان بن أحمد البوسعيدي، وذلك بينما كان عائدًا من مسقط إلى عاصمته زنجبار، رحلة شاقة طولها 2500 كم تقطعها السفن في شهر مع الرياح الموسمية، لكن السلطان في سنواته الأخيرة كان يكثر من ركوب البحر، ويحب التجوال بين أطراف دولته الواسعة، أعظم سلاطين أسرة البوسعيدي التي حكمت دولة عمان، امتلك البر الواسع في آسيا وإفريقيا ولكن المنية وافته قبل بلوغ بر زنجبار بأسبوع زمان، وكان معه عند وفاته على السفينة ابنه برغش الذي أنجبه السلطان من جارية حبشية، ففكر برغش أنه يستطيع استغلال عنصر المفاجأة والقفز على السلطة والإطاحة بأخيه ماجد الذي أجلسه والده نائبًا عنه على الجزيرة، وذلك قبل أن يستعد ماجد ويعلن نفسه حاكمًا بعد والده، وهكذا دبر أن يكون دخوله إلى ميناء الجزيرة ليلاً، ودفن أباه سرًّا تحت جنح الظلام، وحاول استمالة وزراء أبيه للإطاحة بأخيه ماجد، ولكن الوزراء وكبار الشخصيات كانوا يميلون إلى ماجد، ورفضوا التواطؤ في مؤامرة ضده. وهكذا فإن سلطان البر وخاقان البحر سعيد بن سلطان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، قد مات وسط البحر، ودفن كما يدفن قطاع الطرق، وها هم أبناؤه يتأهبون للقتال على تقسـيم الملك، فسـبحان مـن لا يتغير ملكه.

عمومًا فلن تكون تلك آخر مرة يتآمر فيها برغش للقفز على العرش، إذ سوف يدبر مؤامرة ثانية أغبى من الأولى، وهو ما سوف نعرضه لاحقًا ونحن نتمشى في رحلتنا على أرض جزيرة القرنفل.

❀ ❀ ❀

داخل سجن العبيد أصر مرشدنا السياحي المستر إكسوچين أن يضع سلسلة السجن في رقبته، كي يجسِّد لنا المشهد، رجل أسود مربوط من رقبته بسلسلة الحديد كما يربط الحيوان، كم تألم هؤلاء البسطاء الذين عاشوا في مودة مع الطبيعة قبل أن تدهمهم الحضارة بنواياها البغيضة التي تختفي تحت أستار ثقيلة من الفلسفات والأديان والدعوات الإنسانية التي

تتكيف بليونة طبقًا لاحتياجات المرحلة وطلبات السوق الرأسمالي، غادرنا المكان منقبضين حتى إذا وصلنا إلى البوابة، انفتح أمامنا فضاء سوق العبيد، وفيه أقيمت كنيسة رائعة، أمامها حفرة، نصبت فيها فنانة أوربية منحوتاتها التي تجسد العبيد مسلسلين من الرقبة في طريقهم للبيع، أكد لنا المرشد السياحي أن السلسلة التي تلتف على رقاب المنحوتات هي السلسلة الأصلية التي التفت بالفعل على رقاب الأفارقة، والمسافة من باب السجن، حيث نقف الآن، وبين الكنيسة التي أقيمت تحديدًا في موضع الشجرة الشهيرة التي اعتاد النخاسون أن يقيموا مكانها مزاد بيع العبيد، هي عشرات الأمتار في المكان، ولكنها في الزمان واحد وعشرون عامًا، فقد توقف سردنا التاريخي عندما بلغنا نبأ وفاة السلطان سعيد سنة 1856، أما الكنيسة فقد أقيمت سنة 1877، صحيح أن السلطان الراحل كان قد عقد معاهدة مع إنجلترا عام 1822 لوقف تجارة العبيد، فاستحق ثناء مجلس العموم البريطاني بعد أن شبعت ليفربول من هذه التجارة، لكن السلطان

نحت يجسِّد معاناة العبيد.

لم يغلق السوق نهائيًّا، واستمر المزاد تحت الشجرة، وإن كان يديره الآن قراصنة أوربيون مقابل (جعالة) تدفع لوكلاء السلطان وعلى رأسهم ياقوت بن عنبر، وذلك عن كل رأس بشري يصعد إلى السفن المغادرة، قلَّ الطلب على سواعد العبيد بعد أن حققت الرأسمالية تراكمها الأولي، لكن أرباح صيد البشر لا تزال تغري بالمحاولة، حتى إذا تشبعت سوق العمل، وأصبح ضخ المزيد من السواعد غير المدربة يحمِّل النمو الرأسمالي عبئًا اجتماعيًّا قد يعرقل نموه، أقبل السيد الأوربي الطيب فقطع شجرة مزاد العبيد، وأقام مكانها كنيسة للسيد المسيح، تتغنى بالمحبة وتترنم للخلاص من الخطيئة، وهاكم ما بقي من المشهد: سجن رهيب للعبيد الأفارقة بناه وأداره سلاطين العرب، وكنيسة وديعة مسالمة بنتها إنجلترا الرحيمة التي أكدت عزمها على عدم السماح

باستعباد البشر، بأن أمرت البحرية البريطانية بتفتيش ومصادرة أي سفينة تحمل العبيد. وهكذا ذهبت إنجلترا بالمكارم كلها، بأن تابت عن تجارة العبيد، بل إنها ناضلت من أجل إيقاف استعباد البشر، أما الوجود العربي فقد تلطخت ذكراه أمام أفارقة هذا العصر الذين يجدون أمامهم سجنًا عربيًّا، وكنيسة إنجليزية.وأما المسافة القصيرة بين باب سجن الرعب حيث نقف الآن وبين الكنيسة الوديعة التي أمامنا، فهي مسافة كبيرة في الوعي والمصالح التاريخية.

وفي المصالح نقول: إن مصر حاليًّا هى إحدى أربع دول في العالم لها تمثيل قنصلي في زنزبار، هذا بالإضافة إلى البعثة الدبلوماسية المصرية في تنزانيا.

❀ ❀ ❀

بعض الكتاب العرب يعتقد أن الشهامة القومية تفرض عليه أن يعرض وقائع التاريخ العربي بيضاء من غير سوء، فيعمد إلى القراءة الانتقائية لظواهر التاريخ، فالتاريخ العربي عندهم يجب أن يكون تاريخ الأمجاد التي صنعهـا هذا الزعيـم الملهـم، أو ذلك القائد الضرورة، أما السبب في اضمحلال الحضارة العربية فهو المكائد والمؤامرات الأجنبية، وربما دعَّم قوله بواقعـة هنـا أو حادثة هناك، وذلك مذهب قد يريحنا إذ يعفينا من المسئولية عن تعثرنا الحضاري، ولكنه يفقد الدرس التاريخي منطقه ويجعلنا أمة بلا تاريخ، ويحول التاريخ العربي إلى تاريخ ذاتي يتأثر بالحسد الدولي أو العكوسات العالمية، وكل ذلك يقود إلى نتائج كارثية في وعينا العام وموقفنا الحضاري، لأنه يضعنا في عداء ومواجهة مع الآخر المختلف بالضرورة دينيًّا أو عرقيًّا، وذلك النوع من الفكر يبدد طاقتنا الوطنية في معارك زائفة، ثم إن هذا النوع من الفكر هو الحاضنة الحقيقية لكل الأفكار الإرهابية التي تتكوم من حولنا. وفي هذا المقام ربما تعيننا دراسة أسباب تدهور الدولة العمانية الكبرى التي امتدت من البحرين إلى زنجبار في فهم أزمة النظام السياسي حينما يغترب عن الواقع أو ينكر حركة التاريخ، حينها يصبح تفكك هذا النظام مسألة وقت، سواء أتم ذلك بفعل صراع داخلي أم تآمر خارجي، فقد ظلت الدولة العمانية جيبًا إقطاعيًّا في الزمن الرأسمالي، صحيح أن سعيد بن سلطان قد هجر لقب الإمام الذي اتخذه والده والذي يحمل مضمونًا مذهبيًّا واتخذ لقب (السلطان)، لكن هذا التغير لم يتجاوز اللقب، فقد ظل النظام السياسي إقطاعيًّا في جوهره؛ فالسلطان هو الحائز لكل السلطة والثروة، موارد الدولة هي موارد

السلطان وتجارة الدولة هي تجارته والجمارك والضرائب والجعالات تجبى له، أما حاشيته فهي مثقلة بالجواري والعبيد، وطبقًا لمذكرات الأميرة سالمة بنت سعيد فقد كان والدها السلطان يملك في قصوره في مسقط وزنجبار «خزائن وكنوزًا» أي أن ميزانية الدولة هي ميزانية السلطان، وهو نوع من النظام الأبوي الذي يشكل أبرز سمات الدولة الإقطاعية، صحيح أن أسطول السلطان قوي ومدافعه كثيرة لكنها مشتراة من الخارج، فهو لم يفكر في تأسيس قاعدة إنتاجية لتمويل حروبه الخارجية كما فعل محمد علي في مصر، ثم إن الطبيعة الريعية لحكم البوسعيد في زنجبار تحجز وتمنع تحول التراكم النقدي إلى رأسمال صناعي، وعندما مات السلطان سعيد سنة 1856 وقع الخلاف بين الورثة على تقسيم التركة، فأما الابن الثالث ثويني الذي كان حاكمًا على مسقط منذ عام 1822 فقد طالب بالدولة كاملة، فعارضه الابن السادس ماجد الذي كان حاكمًا على زنجبار منذ 1854، وكان كل منهما قد نجح في تشكيل دائرة من النفوذ في منطقته، وفي 1859 أعد ثويني حملة بحرية لإخضاع زنجبار ولكن البحرية البريطانية بقيادة الكابتن (رسل) أغلقت الطريق على ثويني فرجع، ولجأ كلا الأخوين المتنازعين إلى بريطانيا التي أرسلت بعثة تحكيم سنة 1860 برئاسة الكولونيل كوجلان، وقد رفعت اللجنة تقريرها إلى اللورد كاننج cannaing الحاكم العام للهند فوضع تحكيمه المشهور سنة 1861، والذي قضى فيه بتقسيم الدولة بين الأخوين: ماجد على زنجبار والممتلكات الإفريقية، وثويني على عمان، علي أن يدفع حاكم زنجبار 40 ألف ريال سنويًّا لحاكم مسقط بالإضافة إلى المتأخرات المستحقة عليه من العامين الآخرين، وذلك تحقيقًا للمساواة بين ميراثي الأخوين لأن زنجبار أكثر غنى من مسقط، دون أن يعني ذلك المبلغ أي تبعية سياسية، وهكذا تم التصرف في الدولة باعتبارها عقارًا يقسم بين الورثة، وهنا نتوقف لكي نضرب الأمثال، فنقول: ماذا لو طال عمر السلطان سعيد بضع سنوات؟ والإجابة أنه من المحتمل أن عمر الدولة كان سيطول أيضًا. إذن فوحدة الدولة أو تجزئتها لا تتعلقان بالمصلحة القومية ولا ترتبطان بالمصلحة الاقتصادية للقوى المنتجة في المجتمع، وهو ما يعني أن تفتت الدولة بين الورثة أمر محتوم سواء أتم ذلك بمناورات إنجلترا أو بدونها، وذلك ما يجعلنا نتهم منهج البكاء على الأطلال العربية الذي أدمنه بعض السلفيين العرب بأنه يجافي روح العلم، لأنه يفهم التاريخ ويفسره على أنه مجموعة من المؤامرات التي يدبرها الغير لنا، وذلك نهج قد يليق بعجائز النسوة اللواتي لا يتوقفن عن التشكي ولا ينتوين دراسة القوانين التي تحكم حركة التاريخ.

أصبح ماجد بن سعـيد ســلطانًا على زنجــبار والممتلكات الإفريقية بموجب تحكيم 1861 وقد أدرك (أولاً) أن عليه أن يبتعد بدولته قدر الإمكان عن أشقائه في مسقط الذين يطمعون في ملكه ويودون إزاحته (ثانيًا) أن إنجلترا هي القوة العظمى وهي الضامنة لسلامة أملاكه (ثالثًا) أن السياسة الإنجليزية لا تبني أحكامها على سياسة الدعاوى التاريخية أو الحقوق الشرعية، وإنما على أساس مصالح الإمبراطورية البريطانية وحقائق القوى على الأرض، وهو ما دفعه إلى الاقتراب من إنجلترا والابتعاد عن مسقط، لكن ذلك التغير السريع في الولاءات بالإضافة إلى السيولة السياسية التي صاحبت تفكيك الدولة قد أغرت بعض أشقاء السلطان بمحاولة اغتياله والقفز على السلطة، وقد قاد هذه المؤامرة برغش بن سعيد الذي استطاع أن يجمع حوله بعض أمراء وأميرات القصر، لكن المؤامرة انكشفت وقام الإنجليز بنفي برغش إلى بومباي في الهند قبل أن يعفو عنه السلطان ماجد ويعيده إلى الجزيرة بعد سنتين.

❀ ❀ ❀

الأمــيرة المتمـردة

لم يتزوج السلطان سعيد سوى زوجة واحدة هي السيدة عزة بنت سيف بن الإمام أحمد البوسعيدي، لكنه اشترى ما يزيد على مائة جارية، شركسيات، على قوقازيات، على حبشيات، تنوعت ألوانهن وتباينت أصولهن ليشكلن خليطًا عجيبًا من حريم السلطان، ترك منهن عند وفاته خمسًا وسبعين جارية، وذلك طبقًا لشهادة ابنته الأميرة سالمة بنت سعيد، ،وحكمة ربي أن زوجته الوحيدة السيدة عزة كانت عقيمًا لا تنجب، أما الجواري فقد نثرن بطونهن، وعندما مات السلطان كان قد ترك وراءه خمسة وثلاثين ولدًا وبنتًا، وهكذا ورث أبناء الجواري عن أبيهم العظيم دولة مترامية الأطراف تمتد من تخوم إيران في آسيا حتى موزمبيق في إفريقيا، وكان قدرهم أن يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم، أما بنات السلطان من جواريه فكان قدرهن أن يتزوجن وينجبن قبل أن يأكلهن النسيان وتتسرب سلالتهن في دهاليز الزمان، لكن واحدة من بنات السلطان تمردت على القدر المرسوم، فأحبت، وكان الحبيب تاجرًا ألمانيًّا مسيحيًّا تنصرت من أجله بنت السلطان وهربت معه إلى بلاده، وكتبت الأميرة المتمردة مذكراتها التي كشفت لنا عن شكل الحياة في قصور السلطان، وسردت بعضًا من تفاصيل الصراع على السلطة بين أولاده. تلك هي الأميرة سالمة التي أنجبها أبوها من الجارية الشركسية جلفدان. وهاكم حكايتها.

عندما توفي السلطان كانت البنت في الثانية عشرة، وقد ورثت عن أبيها مزرعة وبضعة آلاف من الجنيهات، وبعد ثلاث سنوات توفيت أمها في سنة 1859 فورثت عنها ثلاث مزارع، وها هي الآن في الخامسة عشرة من عمرها الذي امتد حتى بلغ الثمانين، حملت في أوله اسم الأميرة سالمة بنت سعيد، وماتت في آخره وهي تحمل اسم البرنسيس إميلي روث، وفي تفاصيل الانتقال من سلمى إلى إميلي تكمن أحداث ملحمة إنسانية، لقد أرادت الأميرة الطموح أن تلعب في السياسة في بداية حياتها، فشاركت في مؤامرة من مؤامرات القصور الحاكمة، دبرها أخوها الأمير برغش ضد أخيها السلطان ماجد، ولأن أقل خطأ في حسابات التآمر داخل قصور الحكم قد يكلف المرء رأسه، كادت الأميرة أن تفقد رأسها عندما انكشفت المؤامرة، لولا تسامح أخيها السلطان ماجد الذي عفا عن إخوته، لكن تلك الواقعة تركت وراءها

الكثير من الجروح والمرارات بين الإخوة، وجاءت العزلة المعنوية التي فرضت على الأميرة باعتبارها متآمرةً سابقة على السلطان ثم باعتبارها فتاة كي تدفع بالبنت إلى حالة من اليأس (ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!) لذلك عندما أحبت الأميرة أحبت بجنون، وعندما هربت إلى ألمانيا كانت تهرب من واقعٍ لفظها حينما أرادت أن تقتحمه وأن تكون طرفًا فاعلاً في صياغته والتأثير فيه بأكثر مما تسمح حسابات القوة وتوازنات السلطة، لقد طردها الواقع قبل أن تهرب منه، وفي ألمانيا تعقدت حياتها؛ إذ مات زوجها إثر حادث سير بعد أقل من ثلاث سنوات على زواجه منها، تاركًا لها بنتين وولدا، أطلقت على الولد اسم سعيد رودولف تيمنًا باسم أبيها السلطان، ويبدو أن أمورها المالية ارتبكت إثر دخولها في معاملات مالية خاسرة، نتيجة ثقتها الزائدة في بعض الألمان، فعاشت حياة شاقة، اعتمدت فيها على بيع حليها الكثيرة التي أخذتها معها من الشرق، لقد قامرت سلمى بكل شيء فخسرت اللقب والأملاك والدين والوطن، وحينما ربحت الحبيب الذي تأوي إليه في برودة الغربة، خسرته في لحظة، فعاشت وسط الألمان (غريبة الوجه واليد واللسان) كما وصف المتنبي معيشته في شعب بوَّان، وحينما تجاوزت الثلاثين كتبت مذكراتها التي رفعت فيها الحجاب عن تفاصيل الحياة في القصور الشرقية، وقد تُرجمت تلك المذكرات إلى الإنجليزية والفرنسية والعربية، وحتى الآن فإن الزائر للقصر المسمى بيت العجائب في جزيرة زنزبار يلحظ احتفالاً ملحوظًا بصور الأميرة، ومتعلقاتها الشخصية قبل أن تهرب، أما مذكراتها بالإنجليزية، فهي تباع في مكتبة صغيرة عند مدخل القصر، وقد تحدثت الأميرة عن أبيها السلطان فقالت: «لم يتسن لي رؤيته إلا في شيخوخته، وعلى ذلك فإني لا أتذكر صورته إلا بلحيته البيضاء الوقور، وكان طويل القامة، نحيل القوام، وقور السمت مهيبًا» أما عن بساطته فكتبت «كم كنا نشهده ممتطيًا جواده متجهًا إلى دار أحد عبيده ليهنئه وأهله بالأفراح أو ليواسيهم في الأحزان» لكن الأسى يأتيها عن طريق أمها جلفدان التي كتبت عنها: «أما أمي فقد كانت شركسية بالولادة، عاشت طفولتها مع أبويها وأختها وأخيها عيشة هادئة آمنة في إحدى مزارع أبيها، لكن حبل الأمن ما لبث أن اختل ونشبت الحرب فجأة وامتلأ المكان بأفواج المغيرين، فالتجأت عائلتها الصغيرة إلى مكان تحت الأرض، كما كانت تصفه أمي وهي تعني، على الأرجح، القبو أو السرداب، لكن الغزاة المغيرين اكتشفوا المخبأ واقتحموه وقتلوا الوالدين، وتناهبوا الأطفال الثلاثة الصغار، وحملوهم على ظهور خيولهم، ولم تسمع أمي منذ ذلك الحين شيئًا عن أختها وأخيها، ولم تكن كثيرة

الكلام عنهم، والواقع أنها لا تذكر من الحادث وما قبله إلا أطيافًا شاحبة، فقد كانت آنئذ طفلة صغيرة في حدود الثالثة أو الرابعة من العمر، ولكنها إذا ما ذكرت أهلها اكتسب صوتها نبرة شجو وحنين، تكشف للسامع توًّا عما يضطرم في ضلوعها من حزن عميق وأسى دفين لم يبددهما مر السنين، ،ولا بد أن أمي دخلت بيت أبي وهي في سن صغيرة جدًّا لا تتجاوز السابعة، فقد خلعت أولى أسنانها اللبنية في بيته، وفيه نشأت وترعرعت رفيقة لاثنتين من أخواتي كانتا تقاربانها سنًّا، ومثلهما ومعهما تعلمت القراءة والكتابة، وهو أمر ذو بال في مجتمعنا، ظل في مستقبل أيامها يميزها عن سراري أبي اللواتي كن يدخلن عصمته بعد سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة، حيث يكن قد فقدن الطموح للتعلم، أو يأنفن من مشاركة الأطفال على مقاعد الدراسة».

ومن قراءة مذكرات الأميرة نلحظ أمرين:

أولاً: أنها رغم تنصرها لم تأخذ موقفًا نقديًّا من الدين الإسلامي بل دافعت في مذكراتها عن القيم الإسلامية، مما يعني أن تحولها الديني لم يكن رحلة روحية ولا موقفًا فكريًّا، فإذا أضفنا لذلك أن المذكرات قد كتبت باللغة الألمانية، وأنها موجهة أصلاً إلى القارئ الأوربي، فهي لم تكن مضطرة إلى مداهنة القارئ المسلم أو إلى الدفاع عن دين انتقلت منه، ما لم يكن هذا الانتقال انتقالاً شكليًّا لدواعٍ عاطفية، أو نتيجة لأزمة شخصية، كما أنها وقفت مدافعة عن وضع المرأة في المجتمعات الشرقية، وسواء أكان موقفها من وضع المرأة في المجتمع الشرقي موضوعيًّا أم غير موضوعي، فإنه يعني أنها لم تخلع جذورها بشكل كامل من التربة الإسلامية ولا من الثقافة الشرقية. ورغم الموضوعية التي تلتزم بها صاحبة المذكرات حينما تشير إلى أن معرفتها بوضع المرأة الشرقية يقتصر بشكل مؤكد على معرفتها بحال المرأة في زنجبار، وبشكل تقريبي في عمان، فإنها تورد فقرة بالغة الدلالة إذ تقول: (ومن الأمور الباطلة الظن بأن الرجل العربي يعامل زوجته باحتقار وازدراء، وديننا الإسلامي يمنع ذلك منعًا باتًّا ويساوي بين الجنسين، وإذا كان الدين قد منح الرجال حقوقًا أكثر من النساء، فإنه في الوقت نفسه قد أوجب عليهم حمايتهن ورعايتهن، والمسلم يخاف الله ويرعى تعاليمه حتى آخر لحظة من حياته»، ويستلفتنا في هذه الفقرة من المذكرات قولها «ديننا الإسلامي» رغم أن الثابت من تاريخها أنها غادرت الإسلام ومارست طقس التعميد المسيحي، كما سيرد ذكره في تفاصيل قصة هروبها، كما يستلفتنا وقوفها مدافعة عن وضع المرأة في الشرق، رغم أنها ورثت المأساة عن أمها كما ذكرنا، فقد خطفت أمها طفلة بعد قتل أبويها، وفصلت عن شقيقيها، وبيعت جارية في

بلاد غريبة، كي يطأها رجل في عمر والدها. وتلك أسباب كان من المفترض أن تجعلها حانقة على نظام الجواري الذي كان شائعًا في القصور الشرقية، لكن عرضها لأوضاع المرأة في المجتمعات الشرقية ووقوفها موقف المفسر والمدافع عن هذه الأوضاع، يعني أن هروبها إلى المجتمع الغربي كان لأسباب ذاتية، ولم يكن تمردًا على وضع المرأة في المجتمع الشرقي.

ثانيًا: أنها في معرض سردها للهدايا والمجوهرات التي تصرف للجارية الجديدة، إذا انضمت لحريم السلطان، أو إذا حملت وولدت له طفلاً، قد كشفت أن السلطان كان يحتفظ بقسم كبير من ثروته في صورة كنوز ذهبية في خزائنه التي توزعت بين مسقط وزنجبار (كان أبي يحتفظ في قصريه في زنجبار وفي قصره في مسقط بعمان بكنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر،

الطراز العربي في مساكن زنزبار.

فإلى جانب العملات الذهبية من جنيهات إنجليزية وفرنسية وإسبانية ونمساوية، كانت خزائنه تعج بالمجوهرات النسائية النادرة .. وكان من عادة السلطان إذا ما ولد له طفل جديد أن يزوره وأمه في اليوم السابع حاملاً إليهما نصيبًا مجزيًا من هذه الهدايا). وفي ذلك النص ما يشير إلى المضمون الإقطاعي للإمبراطورية العمانية، فقد اختلطت ثروة الدولة بالثروة الشخصية لصاحب الدولة، مما يعني غياب مؤسسات لإدارة موارد الدولة، وفي احتفاظ السلطان في قصوره بعملات ذهبية للدول الأوربية ما يعني أن السلطان سعيدًا قد توقف بطموحاته عند التخوم الإقطاعية، فهو يتوسع في الملك بضم أراضٍ جديدة إلى دولته، ولكنه لم ينتبه إلى أهمية التنمية الرأسمالية، فلم ينشئ بنكًا يقود التنمية الاقتصادية، ولم يصدر عملة وطنية، ورغم أن ولده السلطان برغش قد أصدر الريال الزنجباري أو الريال البرغشي سنة 1882، واستمر متداولاً في زنجبار ومسقط والكويت حتى عام 1908، فإن هذا الريال

قد صدر أيضًا على أسس إقطاعية، فهو لم يكن سندًا على بنك يقود ويضمن أوضاعًا اقتصادية في زنجبار، بل كانت قيمته تتوقف على وزن ما يحويه من سبيكة ذهبية،

شارع تجاري في زنزبار.

لا على متانة الاقتصاد الوطني للدولة التي أصدرته، أي أنه يتشابه مع الدينار الفارسي أو الروماني في زمن ما قبل الرأسمالية، وتلك قضية طويلة الذيل، لأنه في زمن ما قبل الرأسمالية كانت العملة تحمل قيمتها فيها، ثم يأتي اسم الحاكم أو اسم الدولة التي أصدرتها كضمانة لصحة وزن السبيكة وجودة عناصرها، أما في الزمن الرأسمالي فإن العملة هي سندات على بنك الدولة تتيح لحاملها الحصول على منتجات من هذه الدولة، تضاهي قيمة ما يحمله من عملة، وهو ما يجعل العملة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحالة الاقتصادية للدولة صاحبة الإصدار النقدي.

كل ذلك يجعلنا نستنتج أن الإمبراطورية العمانية التي بلغت أوج عظمتها على عهد السلطان سعيد، لم تكن سوى جيبٍ إقطاعي في الزمان الرأسمالي، صحيح أن السلطان (سعيد) كان يشجع التجارة الخارجية، وكان يقول عن نفسه إنه تاجر قبل أن يكون سلطانًا، وكان سخيًّا في تقديم التسهيلات التجارية لمختلف الجنسيات، لكن كل ذلك لم يؤد إلى نمو

برجوازية تجارية محلية، لأن النمو الرأسمالي ليس مجرد تراكم أرباح، ولكنه يرتبط بشروط تاريخية، وينتعش في مناخ من الحريات السياسية ومؤسسات المجتمع المدني، التي لا بد أن تقود إلى الحكم النيابي، وتداول السلطة بين قوى اجتماعية تمثلها تكوينات سياسية تدافع عن مصالح حقيقية، وعدا ذلك فإن الأرباح التي سوف يحققها التجار المحليون سوف يترجمونها إلى عقارات وأراض وجوارٍ وخدم، أي أن تلك الأرباح لن تصب في سياق تنمية رأسمالية مع ما يستتبعها من ديمقراطية سياسية، وتلك كانت وما تزال آفة من آفات المجتمعات العربية في زماننا.

تعثر إذن التطور الرأسمالي الذي كان كفيلاً ببعث شباب تلك الدولة العربية الكبرى التي اتخذت من زنجبار عاصمة لها، لأن الشروط التاريخية لتطور هذه الدولة أو حتى لبقائها لم تكن قد توافرت بعد، أي أن تلك الإمبراطورية كانت تحمل في أحشائها عوامل فنائها، وقد بدأت علامات الشحوب ومظاهر الموات تدب في جسد الدولة وتسري إلى أطرافها مع وفاة السلطان سعيد الذي وافته المنية في عرض البحر وهو في طريقه من مسقط إلى زنجبار، فما إن تيقن الأمير برغش الابن السابع للسلطان، والذي كان مصاحبًا لوالده في هذه الرحلة، من وفاة والده السلطان، حتى فكر في السيطرة على الحكم في زنجبار، فالسلطان كان قد استخلف ولده السادس (ماجد) نائبًا له على زنجبار قبل رحلته الأخيرة إلى مسقط، ولكن الأمير برغش خطط لاستغلال الموقف الذي نشأ عن وفاة والده، في ظل غياب مؤسسات للحكم أو دستور للدولة ينظم انتقال السلطة. هكذا فكر الأمير برغش وقدَّر، ثم قرر أن يدخل ميناء زنجبار ليلاً ويدفن أباه سرًّا في ظلام الليل. ثم يرسل إلى وزراء أبيه في نفس الليلة كي يغريهم بالتحالف معه ومساعدته في تولي السلطة، وهكذا صنع التاريخ واحدة من أعجب حوادثه، فالسلطان القوي الذي حكم أكبر دولة عربية في العصر الحديث يدفن سرًّا تحت جنح الظلام كما يدفن مجهولو النسب وقطاع الطرق، وأحد أولاده يدبر للقفز على السلطة والتخلص من أخيه، وعندما فشل برغش في السيطرة على الحكم، ذهب إلى أخيه معتذرًا وحاول تفسير موقفه بأنه كان مضطرًّا لدفن السلطان سرًّا، لأن الجثمان كان قد مرت عليه سبعة أيام دون دفن، مما أدى إلى تعفنه وانبعاث رائحة كريهة منه، وليس من اللائق أن يراه الناس في هذه الحالة، وزعم أنه اضطر إلى كتم الخبر حتى عن أخيه لئلا يتفشى بين الناس، الذين لو عرفوا فلن يستطيع أحد منعهم من المشاركة في جنازة حاكمهم.

ورغم فشل هذه المحاولة فإن أحلام القفز على السلطة سرعان ما سوف تراود الأمير برغش، وفي المحاولة الثانية سوف تظهر أخته من الأب، الأميرة سالمة كي تحكي لنا تفاصيل المؤامرة.

❀ ❀ ❀

من المهم هنا التذكير بأن الأميرة سالمة كتبت مذكراتها بعد سنوات من فشل المؤامرة التي تورطت فيها بغية الإطاحة بأخيها السلطان ماجد، فهي هنا تقدم اعتذارًا وتبريرًا، بعد أن انكشفت أمامها الحوادث، فهي تعترف بكرم ماجد وعفوه، وجفاء برغش وغطرسته، فتثني بشدة على ماجد الذي عطف عليها وهي صغيرة ورعاها وهي كبيرة، لكنها أحلام السلطة والنفوذ التي تقلب القلوب، وهي تقدم في مذكراتها تفسيرًا للتآمر على أخيها السلطان ماجد فتقول: «كان ماجد، بنبل طبعه وطيبة خلقه، قد كسب حب رعيته واحترامهم، إلا أنه كما نعلم كان عليلاً لا يستطيع أن يشرف بنفسه على كل شئون الحكم فتولى وزراؤه تصريف الكثير منها حسب أهوائهم واجتهادهم، وكان سليمان بن علي أبرز وزرائه وأكثرهم نفوذًا، وكان بارعًا خداعًا، استطاع بالحيلة والدهاء أن يستحوذ على كل الأمور وأن يمد يده إلى كل شئون البلاد». وهنا نستطيع أن نضع يدنا على ملمح آخر من ملامح الدولة العربية الإقطاعية في زنزبار التي كان لابد لها أن تختنق في الزمن الرأسمالي، فالحكم هنا يدار بشكل شخصي في ظل عدم وجود مؤسسات للدولة، ففي اعتلال صحة السلطان ما يعني وجود رجل قوي بجواره، وهو وضع يغري باقتناص السلطة ويفتح الباب واسعًا أمام الدسائس والمؤامرات، وقد لعب الأمير برغش، على طموحات الأميرة سالمة، فضمَّها إلى السكرتارية الخاصة به، وذلك دور متميز في مجتمع الحريم الشرقي، وقد تلخصت خطة برغش-كما تقول الأميرة - في «أن يجمع حوله أكبر عدد يستطيعه من رؤساء القبائل»، وتضيف الأميرة: «ولما تجمع عند برغش عدد كافٍ من هؤلاء قرر البدء بتنفيذ خطته، وتتلخص بإلقاء القبض على ماجد وتنصيب نفسه سلطانًا على البلاد بدلاً منه، وكانت الاجتماعات تعقد في بيوتنا، في جنح الظلام أو أواخر الليل، ويتسلل إليها المتآمرون. وكان يرأسها برغش بنفسه، ويبحثون فيها احتمالات الحرب الأهلية ووسائل الاستعداد لها». ويبدو من سرد الأميرة أن برغش المتسرع للقفز على السلطة كان أقل حذرًا، فامتنع عن حضور مجلس السلطان اليومي «البرزة» وهو مجلس كان يحضره كبار رجال الدولة وأعضاء العائلة،

وكان الانقطاع عنه يعني إعلان العداء للسلطان، وذلك في تقدير سلمى ما كشف مؤامرة برغش، لكن قراءة الحوادث تثبت أنها كانت مؤامرة ساذجة، فقد انضم إليها أربع فقط من بنات السلطان سعيد ومعهن صبي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة، ويبدو أن السلطان ماجدًا كان على علم بخطوات المؤامرة، ففي مجتمع تحكمه الدسائس والمناورات، وخصوصًا مع وجود محاولة سابقة من أخيه للغدر به والقفز على السلطة ما يجعله حذرًا، لذلك ما إن توقف الأمير برغش عن حضور المجلس اليومي للسلطان حتى بدأ السلطان يتخذ حذره، ففرض الرقابة على بيت أخيه برغش، وإن كانت الأميرة سالمة تزعم أن المراسلات استمرت بواسطة بنات السلطان المتحالفات مع برغش، إذ لم يكن أحد من الجنود يجرؤ على تفتيشهن، ولكن في اليوم المحدد للثورة، أحاط الجنود ببيت برغش وصدرت لهم أوامر مشددة بقطع كل اتصال له بالعالم الخارجي، وهكذا انهارت خطط برغش، وهرب من البيت المحاصر وهو يرتدي عباءة نسائية، واستطاع اللحاق بأنصاره، لكن مدفعية السلطان ماجد حاصرتهم وبددت شملهم، فعاد برغش جريًا إلى بيته وتحصن به، وهنا ظهر القنصل البريطاني ومعه البحرية البريطانية التي أجبرت برغش على الاستسلام، عندها قبض عليه الإنجليز واقترحوا نفيه إلى بومباي في الهند حيث قضى هناك سنتين، عاد بعدها في هدوء إلى الجزيرة، وبعد فشل تلك المؤامرة البلهاء، فإن صاحبة المذكرات الأميرة سالمة وجدت نفسها قد خسرت كل شيء، وتبددت أحلامها في الصعود السياسي، وظلت في عزلة شبه كاملة حتى عفا عنها شقيقها السلطان، مما أوقعها في أزمة نفسية، وفي هذه الأثناء تعرفت إلى تاجر ألماني متجول تقول عنه (وفي خلال تلك الأيام الحالكة الحافلة بالكيد والشجار بين أفراد عائلتنا، أسعدني الحظ بالتعرف إلى شاب ألماني كان ممثلاً لأحد المحال التجارية الألمانية في زنجبار، وهو الذي كتب له أن يكون زوجي في قابل الأيام) أما كيف وقع الحب بينهما وكيف حدث هذا الزواج العجيب الذي غيرت فيه ابنة السلطان دينها وهربت من وطنها، فذلك ما تحكيه صاحبة المذكرات فتقول: «كانت سطح داره أوطأ من سطح داري، وكنت غالبًا ما أرقب من نافذتي حفلاته الرجالية الباذخة التي كان يتعمد إقامتها في الأماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في الاطلاع على هذه الاحتفالات الغريبة، وسرعان ما شاع في البلد خبر صداقتنا التي تطورت في النهاية إلى حب متبادل، فسمع بها أخي ماجد ولم يحرك ساكنًا وكل ما تقوله الإشاعات في هذا الصدد عن عدائه لي أو سجني فهو محض خيال لا أساس

له من الصحة، وكان طبيعيًّا لي أن أحاول الخروج من البلاد سرًّا ما دام يستحيل زواجي فيها وقد فشلت محاولتي الأولى، ثم تهيأت لي الفرصة ثانية بفضل المسز « س » زوجة الدكتور والقنصل الإنجليزي التي نقلتني في إحدى الليالي بزورق مع المستر «ب» ربان الباخرة الحربية البريطانية «هاي فابر» التي كانت جاهزة للحركة، فما إن صرت على ظهرها حتى غادرت الميناء على التو، واتجهت نحو الشمال حيث أوصلتني إلى هدفي المقصود وهو ميناء عدن. وفي عدن نزلت بضيافة عائلة إسبانية تعرفت عليها في زنجبار، وظللت أنتظر بفارغ الصبر قدوم زوجي الذي لم يلحق بي إلا بعد عدة أشهر قضاها في زنجبار لتصفية أعماله في شركته، وما إن وصل زوجي حتى تم تعميدي باسم «إميلي روث» في الكنيسة الإنچيلية في عدن، وتبعته في الحال مراسم الزواج طبقًا للشعائر الإنچيليكانية، ثم سافرت وزوجي إلى وطنه هامبورج حيث استقبلنا والده بترحاب حار».

على كل حال فإن سالمة بنت السلطان سعيد غادرت جزيرة زنجبار في أغسطس سنة 1866، فيكون عمرها حينذاك اثنين وعشرين عامًا، أما بقية القصة فهي أنها لم تعش مع زوجها إلا ثلاث سنوات فقط ثم توفي عنها وهو يقفز من الترام، لتجد ابنة السلطان نفسها غريبة في مجتمع غريب مع بنتين وولد أنجبتهم من رودلف، وقد أطلقت على الولد اسم سعيد تيمنًا باسم جده سلطان الإمبراطورية العمانية، ترملت البنت في شبابها وكان عليها أن تعول أسرتها من بيع ما تملك من حلي، وفي سنة 1885 أرادت أن تستعيد أصولها العربية فزارت زنجبار على عهد أخيها السلطان برغش الذي سبق وأن تآمرت كي تدفع به إلى كرسي السلطنة، وها هو قد أصبح سلطانًا بعد وفاة أخيه ماجد، ولكنها وجدت نفورًا شديدًا من برغش الذي كان قد وضع يده على أملاكها، وعرض عليها تسوية مالية اعتبرتها مهينة؛ لأنها تقل عن عشر معشار القيمة الفعلية لما ورثته عن أبيها من دور ومزارع، أما إنجلترا فقد نظرت إلى تلك الزيارة بعدم ارتياح إذ ترددت أيامها شائعات تقول إن الألمان كانوا يخططون لبسط حمايتهم على زنجبار وتولية سعيد رودلف (ابن سالمة) سلطانًا على الجزيرة، وقد طال عمر إميلي روث التي كانت في السابق الأميرة سالمة بنت السلطان سعيد حتى ماتت سنة 1922 تاركة مذكراتها التي ترسم صورة للحياة في القصور الشرقية، وقد طبعت مذكرات الأميرة أكثر من مرة في إنجلترا وأمريكا، والزائر لمتحف زنجبار سوف يلاحظ احتفالاً غير مألوف بالأميرة يعرضون غرفتها الخاصة بالقصر قبل هروبها، كذا يعرضون صورة شخصية كبيرة لها هي الصورة الوحيدة لشخصية نسائية، بالإضافة إلى

مذكراتها التي تباع بعشرين دولارًا عند مدخل قصر الحكم الذي كان عامرًا بالسلطان العربي في يوم من الأيام.

❀ ❀ ❀

بنـــاء دار الســلام

السلطان ماجد مؤسس دار السلام.

اعتبارًا من سنة 1864 أصبحت القطيعة بين زنجبار ومسقط نهائية، وتكرس إلى الأبد انقسام الإمبراطورية العمانية، فمنع السلطان ماجد سفن مسقط من الملاحة في مياه زنزبار، كما حرَّم على سكان جزيرته تأجير المساكن للتجار المقبلين من جزيرة العرب، كذا أوقف الهدايا التي كان يرسلها إلى شيوخ القبائل العمانية، وفيما كان يسعى السلطان العربي إلى تقليص العلاقات التجارية مع العرب، أخذ يمد بصره إلى الشاطئ الشرقي لإفريقيا، فوجد أن بعض التجار الهنود قد أخذوا يتجمعون في نقطة ساحلية على شاطئ تنجانيقا، وقد أقاموا بالفعل تجارة نشطة مع القبائل الإفريقية وتلك بعض سمات الحقبة الرأسمالية في تاريخ العالم، فالاقتصاد الرأسمالي يتوسع مع الإنتاج السلعي بشكل يتجاوز الحاجة القومية ويتمدد في الأسواق الرأسمالية حتى تصبح باتساع العالم كله، ويعيد صياغة القيم الثقافية بما يناسب درجة التطور الرأسمالي، أما وقد تشبعت السوق باليد العاملة، فقد أخذت القيم الرأسمالية تحارب تجارة العبيد، وأصبحت المصالح الرأسمالية تقتضي أن يظل الأفارقة في قراهم، يجمعون المواد الأولية مثل المطاط والصمغ والعاج ويزرعون الأرز ويبادلون كل ذلك بما تنتجه الآلة الرأسمالية من ملابس ومنتجات معدنية ومسابح طويلة من الخرز الملون، وتلك تجارة حرة بين أناس أحرار، وقد اكتشف السلطان ماجد أن مستقبله التجاري

وانتعاش جزيرته يكمنان في تطوير التجارة مع البر الإفريقي، وأن التجمع العشوائي الذي أقامه التجار الهنود على الشاطئ الشرقي للأم الإفريقية يحتاج إلى التطور، فشرع في تنظيم الميناء وبناء المدينة التي أطلق عليها (دار السلام). ووضع شرطته لبسط الأمن وتأكيد النفوذ، فانتعش طريق القبائل بالقوافل التجارية، ولا يزال هذا الطريق قائمًا حتى الآن «تربط بدايته الآن بين المدينة ومطار دار السلام»، وزرع على الطرقات ما يزيد على الثلاثين ألف شجرة من أشجار جوز الهند، وذهب السلطان يطوِّر النظام الإداري في عاصمته زنجبار، فأدخل المطبعة سنة 1868، ولكن لكل أجل كتاب، فالسلطـان الذي لا تنقضي عزائمه، سكنت نفسه. ومات ماجد بن سعيد ميتة ربه سنة 1870، ليخلفه على كرسي الحكم في جزيرة زنجبار السلطان برغش بن سعيد الذي توازت سنوات حكمه في زنجبار مع سنوات حكم الخديو إسماعيل في القاهرة.

❀ ❀ ❀

من عجب أن حياتي الرجلين؛ السلطان برغش والخديو إسماعيل، قد تشابهتا في الكثير من الملامح، كلاهما انبهر بالحضارة الأوربية فأخذ ينقل عنها مظاهرها غير مدرك أن الحضارة الرأسمالية تصنعها أدوات إنتاج حقيقية وقوى إنتاج واعية تدير نظامها السياسي عبر مؤسسات ديمقراطية، فقد بنى خديوي مصر دارًا للأوبرا كي يمنح القاهرة مظهرًا أوربيًّا، وتوسع في بناء القصور وإقامة الحفلات، أما السلطان فقد بنى بيتًا للعجائب في زنجبار جمع فيه بعض منجزات التكنولوچيا الغربية، وقد لاحظت الأميرة سالمة سالفة الذكر أنها أثناء زيارتها لزنجبار سنة 1885 لاحظت قصر العجائب والفنار القابع أمامه الذي يلعلع بالكهرباء، كذلك وجدت أن السلطان قد أقام مصنعًا للثلج ومدَّ خطوط السكة الحديد، وبنى محطة للكهرباء، وجه آخر من أوجه التشابه بين الخديوي والسلطان، فقد كان كلاهما مترفًا، تذيبه الأعين النجل وتسكره الصبابة والهوى، وكلاهما عرف تقلب الدهر وتنكر الأيام، فهل يلتقي الخديوي والسلطان في القاهرة؟ ذلك ما سوف نبحث عنه، لكننا سنعود الآن إلى وقائع رحلتنا.

❀ ❀ ❀

نهاية تجارة العبيد.. وزيارة بيت العجائب (في بيت العجائب)

هكذا صورت الفنون الغربية العرب وهم يجلدون الأفارقة.

في رحلتنا فوق الجزيرة توقف سعينا عند باب سجن العبيد وها نحن نخرج من هذا الجبّ المعتم والمقبض للروح، لنجد أمامنا مباشرة كنيسة السيد المسيح التي أقيمت مكان الشجرة الشهيرة التي كان العبد يجلد تحتها لاختبار صلابته قبل البيع، المشهد أمامنا يجسّد مظلمة تاريخية أخرى لحقت بالعرب أينما ارتحلوا، ولايزال يثير مرارة الأفارقة حتى الآن، فالأثر يقول إن العرب قد تركوا سجنًا ظالمًا طالما استعبدوا فيه الأفارقة، وطالما تاجروا في رقابهم، ثم يقول إن الإنجليز وإن كانوا قد تورطوا في تلك التجارة الملعونة، فإنهم سرعان ما ندموا على ما فعلوا، وعزموا على ألا يعودوا لمثلها، فحاربوا تلك التجارة وقطعوا تلك الشجرة وأقاموا هذه الكنيسة، وذلك ما دعانا إلى أن نجول جولة تاريخية طويلة، استعرضنا فيها الظروف التاريخية التي أوجدت تجارة العبيد، وعلاقة سلاطين العرب بهذه التجارة.

وعرضنا كيف أن الرأسمالية الصناعية التي نشأت على أنقاض الإقطاع الأوربي قد اعتمدت أساسًا على العمل المأجور واقترن نموها بالعنف المنظـم الذي استخدمـت فيه سلطـة الدولة، ثم ما لبثت أن صدَّرت هذا العنف المنظم خارج حدودها القومية في صورة احتلال لأراضي وأسواق الغير، فراحت تبسط نفوذها وتتوسع في سوقها حتى شملت العالم كله في مرحلتها الاستعمارية، أمَّا الكشوف الجغرافية التي صاحبت التمدد الاستعماري، فقد أضافت إلى خريطة العالم، وإلى أملاك الرأسمالية المتطلعة قارات وجزرًا بسكانها الأصليين، وفي قفزة واحدة انتقلت تلك المجتمعات الجديدة من حال المشاعية البدائية إلى نمط الرأسمالية الصناعية، فانتزعت أرواح السكان الأصليين من أبدانهم، وأدمج من تبقى منهم في سوق العمل المأجور، وراحت السفن الأوربية تمخر البحار لتجمع البشر بثمن بخس دراهم معدودات بالتواطؤ مع الحكام المحليين، سواعد عاملة رخيصة. فلما تشبعت سوق العمل وأصبح جلب العبيد يشكل ضغطًا بشريًّا على المجتمعات الرأسمالية، وأصبح بقاء هؤلاء البشر في مجتمعاتهم بعد احتلالها هو الأكثر ربحية، حدَّثت الرأسمالية الصناعية نفسها فقالت: سنجعل منهم عمالاً مأجورين ولكن في بلادهم، يجمعون لنا الخيرات والمواد الأولية التي تحتاجها حضارتنا المتقدمة، سنعلمهم التحضر ونزرع فيهم عادة الاستهلاك السلعي؛ ملابس ملونة ومفروشات وأدوات زينة وآنية طعام، فيزيد لديهم الطلب، فنعطيهم الأجر مما تنتج مصانعنا وطبقًا لشروط السوق، فالسوق عرض وطلب، ونحن نصنع العرض ونملك الطلب، كذا نملك السوط والبارود. نحن إذن من يضع شروط الحياة في الدنيا، يا أهل إفريقيا.. لا يستعبدنكم أحد بعد اليوم، تلك جريمة ضد الإنسانيـة وضد تعاليـم الرب، يا أهل إفريقيا لستم قبائل سائبة ترعى في الغابة، بل أنتم دول ذات حدود وسيادة، فليكن لكل دولة علم ونشيد ورئيس وحكومة، وسوف نزيدكم من فضلنا فنضعكم تحت حمايتنا إلى أن تستكملوا هياكلكم الإدارية والسياسية.

❀ ❀ ❀

لم يمتلك العرب ولا المسلمون نمط إنتاج رأسماليًّا يقتضي سرقة البشر ودمجهم في سـوق العمـل، ووجـود عبيـد أو خصيان أو أغوات أو جوار في قصور سلاطين العرب أو سلاطين آل عثمان، كان على سبيل الخدمة والتسرية وبأعداد تافهة، ولم يثبت أنهم كانوا قوة عمل تنتج شيئًا، وذلك

التنطع الإقطاعي الذي تلكأت فيه الدول العربية والإسلامية قرونًا هو ما أعاق تطور القوى الاجتماعية في تلك المجتمعات، إذ أحاطت تلك الطبقات الحاكمة نفسها بسياج من القداسة الدينية جعلت التمرد على تخلفها وجورها تمردًا على وليّ الأمر، وإيقاظًا للفتنة النائمة يستوجب القتل، وربما تفيدنا هنا نظرية الدكتور (سمير أمين) عن المركز والأطراف، إذ ذهب المفكر المصري إلى أن التطور التاريخي حدث في أطراف العالم؛ حيث الصيغة السياسية أقل جمودًا وهيمنة، ولذلك أمكن اختراقها من القوى الاجتماعية الصاعدة التي طورت أنماطها الإنتاجية، واستطاعت تحديث نظامها السياسي عبر إنجاز ثورة على المفاهيم الإقطاعية، أمَّا في مركز العالم فقد كانت الصيغة السياسية أكثر تماسكًا وجمودًا، وقد تمترست حول ادعاءات دينية، فمنحت لنفسها قداسة وحصانة ضد التغير، وذلك ما حجز تطور مركز العالم حيث نعيش، وتسبب في تأخرنا الحضاري، فلما دخلنا الزمن الرأسمالي دخلنا متأخرين حاملين معنا أسمالنا الإقطاعية وجمودنا العقلي، فإذا القبول بالاستبداد بل تقديسه أحيانًا قد أصبح جزءًا من بنيتنا الثقافية، أما رجع الكلام إلى تجارة العبيد فذلك وزر تتحمله الرأسمالية الأوربية التي خطفت البشر حينما احتاجت سواعدهم، ثم حظرت تلك التجارة حينما اكتفت، ثم ذهبت تستعبدهم في المنبع تحت شعارات استعمارية، فإن يكن بعض الحكام العرب قد تورطوا في هذه التجارة فقد تورطوا كأفراد أو سماسرة، فلم تكن لدى الشعوب العربية أو الإسلامية فرص عمل ولا طفرات صناعية تستدعي خطف البشر وتحويلهم إلى قوى إنتاج.

❀ ❀ ❀

وفاة السلطان ماجد مؤسس دار السلام

نحن الآن في سنة 1870 وقد بلغنا وفاة السلطان ماجد بن سعيد وتولي برغش بن سعيد سلطانًا على زنجبار، السلطان الراحل هو من قطع العلاقات مع مسقط وضيَّق على التجار العرب حتى ينجو بجزيرته من هيمنة مسقط، وتحول بتجارته إلى الشاطئ الإفريقي فأسس ميناء دار السلام، لكن الأجل لم يمهله كي يتم مشروعه، أما برغش فقد كان كارهًا لسياسة أخيه في القطيعة مع العرب، فلم يتحمس لاستكمال بناء دار السلام، لكن ما يزيد على ثلاثين ألف شجرة من جوز الهند زرعها أخوه السلطان ماجد في طرقات دار السلام تشكل ثروة تستوجب الحراسة، لذلك وضع في المدينة حامية من الجنود ومفوضًا إداريًّا، وترك المدينة تنمو بجهد من فيها من التجار، وفي سنة 1872 وقعت بريطانيا مع السلطان برغش معاهدة جديدة أوقفت بها تجارة العبيد نهائيًّا، إذ أعطت تلك المعاهدة للبحرية البريطانية حق التفتيش والمصادرة لأي سفن تحمل الرقيق، ،وفي سنة 1877 قطعت الشجرة الملعونة التي أظلت بظلها قراصنة العبيد طوال عقود وأقيمت مكانها الكنيسة، التصميم إنجليزي والتنفيذ والزخرفة عربية إسلامية، فالنمط الزنجباري في الزخرفة لا يعرف صور الأشخاص، وإنما برع في حفر الوحدات الزخرفية المستمدة من أوراق نباتات الجزيرة، باب الكنيسة ونقوشها الداخلية الرائعة إسلامية الطراز فلا صلبان ولا صور قديسين، أمَّا برج الكنيسة فهو يحمل نفس تصميم مئذنة الجامع، الصليب الوحيد الذي رأيته في الكنيسة طوله ذراع وعرضه شبر، وهو مصنوع من خشب الشجرة التي دفن تحتها قلب مكتشف منابع النيل (الدكتور دافيد لفنجستون). فقد توفي لفنجستون أثناء رحلة إلى زامبيا بمرض الملاريا والدوسنتاريا في 4 مايو 1872، وأوصى بأن يدفن تحت شجرة إفريقية، وحينما أرادت بريطانيا أن تأخذ جسد لفنجستون كي تدفنه في إنجلترا

كنيسة السيد المسيح التي أقيمت في محل سوق العبيد.

في احتفال جنائزي يليق به، رفضت القبيلة الإفريقية التي توفي المستكشف العظيم بينها، وبعد شد وجذب مع الإنجليز رضخت القبيلة وأعطت جسد لفنجستون للإنجليز ولكنها تمسكت بقلبه فأخرجته من الجثمان ودفنته تحت الشجرة، وكتبت على الجسد قبل أن تعطيه للإنجليز (تستطيعون أخذ الجسد لكن القلب ينتمي لإفريقيا) ومن خشب تلك الشجرة صنع الصليب الذي أمامنا. أما البلاط المرصوص في الموضع الذي كان العبد يجلد فيه قبل البيع، فإن لونه يختلف عن باقي بلاط الكنيسة، إذ يختلط البلاط الأبيض بقطرات حمراء تخليدًا لذكرى الدماء التي نزفت من أجسام البشر.

انتهت جولتنا في سـوق العبيد بعد أن انتصـف نهارنا بمدة، وها هو مرشدنا يقودنا إلى مطعم أصحابه من أصل عماني نسوا لغتهم العربية إلا قليلًا، لكنهم يقدمون طعامًا عربيًّا محبوكًا بتوابل زنجبار، الأرز مخلوط بجوز الهند واللحم مطبوخ بالقرنفل وفاكهة ممّا تنبت الجزيرة، وخروب مثلج.. ما أبرده على القلب! لكن الذاكرة الخئون أنستني اسم شيخنا الفكه الذي عارض لامية الطغرائي التي يقول مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

فأنشأ الشيخ يقول:

أناجرُ اللحم تريـاق من العِـلل وأصحُـن الرزِّ فيها منتهى أملي

ترى كيف سيكون قول سيدنا لو أكل من لحوم خراف زنجبار السائبة، أو أبقارها السارحة في المراعي النضرة؟! وكيف لو أصاب من أرزها أصحنًا؟! أنهينا طعامنا وحمدنا المولى جزيل النعم، ثم خطوات وكنا في بيت العجائب

ذلك القصر المهيب الذي شيده السلطان برغش سنة 1882 واتخذه مقرًّا للحكم رغم أنه يقع على بعد خطوات من قصر الساحل المقر الرسمي لسلاطين الجزيرة، كان علينا ونحن داخل القصر أن نستعين بمرشد سياحي آخر يعمل في القصر، هكذا نصحنا مرافقنا المستر أكسوچين الذي استدعى لنا المستر خميس، فأما خميس فهو شاب مسلم واسع الاطلاع ولكنه غاضب من اتحاد زنزبار مع تنجانيقا، أثناء الجولة أخذ يندد بالحكومة الاتحادية التي ضحكت على أهل زنزبار فتآمروا لطرد العرب ونهب ثرواتهم، ومنه عرفت أن السلطان برغش المحب للترف أراد قصرًا يجمع بين حداثة الغرب وعراقة الشرق فكلف مهندسًا من البحْرية البريطانية بالتصميم، أما البناءون فمن أهل زنجبار. غرفات القصر كثيرة ذات أبواب مزخرفة بالحفر المميز، أبواب القصر وجدرانه مزينة بالآيات القرآنية التي كتبها الشيخان عبدالعزيز وسالم ابنا محمد الرواحي، هذا أول بيت تدخله الكهرباء في شرق إفريقيا، وقد جلب السلطان لقصره ذي الطوابق المتعددة مصعدًا كهربائيًّا، ورفع فوق سطحه ساعة تماثل ساعة بج بن، شرفات القصر واسعة تطل على الجهات الأربع، بالنهار يلعب فيها هواء المحيط، وبالليل يشتعل الساحل المواجه للقصر بنور الكهرباء الوهاج، لذلك استحق القصر شهرته بين الأفارقة بأنه بيت العجائب، السلطان برغش كان محبًّا للموسيقى فأرسل عام 1870 موسيقيًّا من زنجبار كي يتعلم العزف على آلة القانون في مصر، لكن محنة هذا السلطان أنه تسلم الحكم في زمن بدأت فيه الجزيرة تفقد أهميتها، ففي الوقت الذي قطعت فيه صلتها بأصلها العماني وتوجهت شطر إفريقيا، كانت ألمانيا وإنجلترا تزحفان على القارة السوداء، ألمانيا لم تستكمل بعد تطورها الرأسمالي مثل إنجلترا، فلا تزال تحتاج سواعد العبيد لسوق عملها الناشئة، وقد وضعت يدها على تنجانيقا وشرعت تصطاد الأفارقة، لم تتوقف ألمانيا عن هذه الرذيلة إلا بعد أن هزمتها إنجلترا في الحرب العالمية وطردتها من إفريقيا، أما السلطان فقد قيدته إنجلترا بمعاهدات منع تجارة العبيد. منذ 1873 أخذت تجارة السلطان تقل وموارده تنضب، ثم جاء إعصار ضرب الجزيرة ودمر محاصيلها، أعقبه تفشي وباء الكوليرا، فالسلطان الآن حزين يتذكر أيام صباه حينما كان أبوه يحكم إمبراطورية تمتد من البحرين إلى موزمبيق، تغيرت الأيام وها هو يجلس فوق جزيرة موحلة، يتساقط شعبه من الإسهال، وتقيده إنجلترا بالشروط والمعاهدات، فلماذا لا يصل ما انقطع مع أشقائه في مسقط؟!، لكن الملكة فيكتوريا تسارع فتدعوه إلى زيارة بريطانيا، وفي طريقه إلى الملكة يمر بمصر وينزل ضيفًا على

السلطان برغش بن سعيد.

الخديو إسماعيل في القاهرة، رحلة قد تخرج السلطان من همومه؛ فإذا عاد إلى جزيرته وجدها قد تعافت من مرضها، لكن فكرة الوحدة مع مسقط راحت تتكــوم فـي رأس السلطـان، واعتبــارًا من 1880 جرت اتصـالات ومفاوضات بينه وبين أخيه تركي الذي أصبح سلطانًا على عمان، السلطان تركي يواجه تمردًا ومصاعب سياسية في عمان، زاهدٌ هو في الحكم ولا مانع لديه من التنازل عن السلطة لأخيه برغش في سبيل توحيد مسقط وزنجبار وإعادة مجد الدولة العمانية، وتلك هي الأنباء التي أزعجت حكومة الهند البريطانية فكلفت (روس) المقيم البريطاني في الخليج بتقصي الحقائق، فرفع تقريرًا يؤكد صحة هذه المعلومات، فأعلنت حكومة الهند البريطانية أنها ستتدخل لمنع أي محاولة لتوحيد مسقط وزنجبار، وفي سنة 1884 اتفق الإنجليز والألمان على تحديد مناطق نفوذ سلطان زنجبار؛ له حكم الجزيرة وله شريط ساحلي يمتد طولاً على ساحل تنجانيقا وكينيا وبعمق عشرة أميال من الساحل، لكن حتى هذه الأميال العشرة لم تسلم للسلطان فقد راحت ألمانيا تقضم من ناحيتها وإنجلترا تقضم من ناحيتها وتوسع نفوذها داخل جزيرة السلطان الذي انزلقت أملاكه الإفريقية من يديه، وتبددت طموحاته في إعادة الوحدة مع أخيه في مسقط، فلم يبق بين الأخوين إلا العمل الطيب، لذلك أهدى برغش أخاه سلطان عمان 22 ألف روبية سنة 1884، ثم أهداه السفينة التجارية (سلطاني) واليخت (دار السلام) سنة 1886. وفي مارس 1888 زار السلطان برغش أخاه في عمان وودعه الوداع الأخير بعد أن ترك له خمسين ألف روبية، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى مات كلاهما، وهكذا غادر صاحب بيت العجائب دنيانا حزينًا ممرورًا تاركًا خلفه ذرية ضعافًا، فانتهزت بريطانيا الفرصة وأعلنت الحماية الكاملة على الجزيرة سنة 1890 وكرمًا منها أبقت على منصب السلطان، له القصور والمزارع والجواري الحسان، كذا أجازت الدعاء بالنصر للسلطان وعساكره في خطبة الجمعة، أما السـياسة والحل والربط فَبيَدِ الإنجليز منذ الآن، ومن حدثته نفسـه بالعصيان من سلاطين زنجبار فالبحْرية البريطانية تكفـيه.

وتلك كانت الوقائع الأخيرة للقرن التاسع عشر كما جرت أيامه فوق جزيرة زنجبار. وكأن هذا القرن يأبى أن يرحل إلا بعد أن يأخذ في يده عز العرب وأيام مجدهم في زنجبار «قرن له قرنان» شهد نصفه الأول زنجبار وهي عاصمة للإمبراطورية العمانية الممتدة في آسيا وإفريقيا، وها نحن في العشر

الأواخر من ذلك القرن وقد ساءتنا تلك الأنباء التي قالت إن الإنجليز قد فرضوا الحماية على الجزيرة سنة 1890، وإن السلطان قد انزوى يجتر أمجاد آبائه بعد أن أصبح نفوذه السياسي لا يتجاوز شرفات قصره وبعض المناسبات الاحتفالية، لم يعد في المنصب ما يغري بطول البقاء؛ لذلك قصرت أعمار سلاطين زنجبار، السلطان خليفة بن سعيد حكم سنتين من سنة 1888

1890 وتوفي، وثلاث سنوات حكمها علي بن سعيد، أما حماد بن ثويني فقد وصل بحكمه إلى 1896 ثم رحل عن دنيانا، ليس في المنصب ما يستحق الصراع بين أبناء البوسعيد في زنجبار، لكن آفة العرب حب الرياسة كما قال ابن خلدون، فبعد وفاة حماد ابن ثويني في 25 أغسطس 1896، كانت وراثة الحكم من حق حمود بن محمد، ولكن خالد بن برغش قفز إلى القصر وأعلن نفسه حاكمًا على الجزيرة، فوجدتها بريطانيا فرصة لتأكيد هيمنتها النهائية على الأسرة والجزيرة، ووجهت سفن البحْرية البريطانية مدافعها إلى قصر الحكم صباح 27 أغسطس، وطلبت من خالد ابن برغش والذين معه مغادرة القصر، ولما لم يمتثل حتى الساعة التاسعة صباحًا فتحت النار عليه، واستمر تبادل إطلاق النار لمدة 45 دقيقة، بعدها أعلن خالد الاستسلام وطلب اللجوء إلى القنصلية الألمانية، فاشتهرت تلك الحرب بأنها أقصر حرب في التاريخ، وبها أحكمت إنجلترا نفوذها على الخاص والعام، وأجلست ببركة مدافعها حمود بن محمد على دكة السلطنة، وذلك ما كان من أمر الجزيرة في القرن التاسع عشر، وسبحان من لا يتغير ملكه.

أعضاء وزارة زنزبار الأولى بعد الاستقلال التي أطاحت بها ثورة عبيد كرومي.

أما القرن العشرون فهو قرن التحولات الكبرى والحروب العظمى وظهور النزعات القومية وتشكل الأحزاب الوطنية، ولن تكون زنجبار استثناء من هذا، فوق هذا فإن زنجبار أصبح اسمها ينطق الآن «زنزبار» كما ينطقه الإنجليز، أهل الجزيرة بدءوا في اتخاذ الملابس الإفرنجية واكتساب العادات الأجنبية، مؤكدين كلام ابن خلدون في مقدمته بأن «المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وسوف يتوارث الحكم على الجزيرة سلاطين (حصّ اللحى

متشابهو الألوان) كما قال جرير الشاعر، وسوف تجتهد إنجلترا في إيقاظ النزعات العرقية، ومن عجب أن العرب احترموا حرية العقيدة وحقـــوق الطـــوائف والأجنــاس، بل أكرموا المبشرين وزودوا المستكشفين بخطابات التوصية، بينما ذهبت إنجلترا المتحضرة توقظ الفروق العرقية وتشعل الخلافات الإثنية، ففي الإحصاء الـذي أجرتــه السلطــات البريطانيــة سنة 1948 سـوف يظهر أول تقسيم للسكان يصنفهم على أساس العرق إلى عرب أو شيراز أو هنود أو أفارقة، نحن الآن في منتصف القرن العشرين وقد تشكلت أحزاب وطنية لم تستطع أن تفلــت

عبيد كرومي الذي أطاح بالحكم العربي في زنزبار.

مـن التقسيـمـات العرقيــة، وإن اتفقــت جميعهــا علـى المطالبــة بالاستقلال. أعطى العرب دعمهم للحزب الوطني Z.N.P بينما تحالف الأفارقة وذوو الأصول الإيرانية في الحزب الأفروشيرازي A.S.P، أما ثالث الأحزاب فهو حزب الشعب Z.P.P.P الذي تمتد فروعه إلى جزيرة بيمبا. وعندما انحسر الاستعمار بأساطيله وجيوشه وشكله التقليدي عن وجه العالم، حصلت زنزبار على استقلالها في ديسمبر 1963، وتشكلت أول حكومة وطنية منتخبة برئاسة الشيخ محمد شامتي، وتم تعريف مركز السلطان جمشيد بن عبدالله بأنه رأس الدولة، ولكن الحزب الأفروشيرازي رفض ذلك، وفي 12 يناير 1964 قاد عبيد أماني كرومي ثورة دموية أطاح فيها بالحكومة المنتخبة، وقامت ميليشياته ومن انضم إليهم من الأفارقة بالهجوم على العرب، فنهبوا أملاكهم وذبحوا منهم أعدادًا كبيرة يقدرها المقلون بعشرين ألفًا بينما المكثرون يرتفعون بالعدد إلى خمسين ألفًا، وقد حكى لي بعض من لقيتهم من كبار السن أن الدماء كانت تسرح في حواري المدينة الحجرية، أما السلطان جمشيد بن عبدالله فقد هرب في باخرته إلى مومباسا في كينيا ومنها إلى لندن، ولا يزال حيًّا يرزق، وفور نجاح عبيد كرومي في السيطرة على الحكم أجرى مباحثات مع رئيس تنجانيقا جوليوس نيريري تكللت بتوحيد زنزبار وتنجانيقا في 26 إبريل 1964، وها هو الرئيس نيريري في مشهد رمزي يخلط تراب زنزبار بتراب تنجانيقا ليتغير اسم الدولة الوليدة في 29 إبريل 1964 إلى جمهورية تنزانيا المتحدة، أما عبيد كرومي فقد اغتيل في مقر حزبه سنة 1972؛ إذ قتله أحد المتضررين من المذبحة.

❀ ❀ ❀

زيارة إلى قصر جواري السلطان برغش

هذا هو صباحنا الثالث في الجزيرة، وقد شرّقنا في التاريخ وغرّبنا، ولكن ما باليد حيلة، إذ لا يمكن فك طلاسم هذه الجزيرة الساحرة إلا بعد قراءة تاريخها، فالجزيرة الفقيرة لا تملك إلا تاريخها، والسياحة هي المصدر الأساسي لدخل الجزيرة تليها تجارة البهارات، الأسواق الشعبية ما أكثرها، للأسماك سوق مخصوصة أقيمت في موضع كان سابقًا قرية للصيادين، لكن البناء زحف من المدينة الحجرية ليتفرع في جميع الاتجاهات وليأكل عديدًا من القرى التي كانت مبعثرة على سطح الجزيرة، المباني الجديدة التي تحتضن المدينة الحجرية هي مبان عادية تفتقد لأي معايير جمالية ككل المباني الحديثة التي توسعت الطبقة الوسطى في إنشائها، يعرضون هنا في سوق السمك جميع أنواع المخلوقات التي تعيش في المحيط الهندي، معظم هذه الأنواع أراها لأول مرة، والأخطبوط هو أرخص أنواع المأكولات البحرية، وهم يطبخونه في الصلصة، وكذلك هنا أجود أنواع البهارات وهم يعرضونها في تشكيلات مغرية، كما يعرضون الكثير من التحف الفنية المصنوعة من الخشب ببراعة اشتهر بها أهل زنزبار، لكنهم يضعون فوقها أسعارًا من نار، شواهد فقر أهل الجزيرة لا تخطئها العين، الشباب يتسكعون في كل مكان، ورغم الفقر والبطالة فإنهم في غاية الأدب، لا ترتفع أصواتهم، ويسارعون في عرض خدماتهم عند الطلب، ويقنعون بما أدفعه لهم، الشباب منهم لا يعرفون العربية، ولكن بعض كبار السن يتكلمون عربية «مكسرة»، ويحفظون بعض سور القرآن ويتلونها تلاوة صحيحة، بعيدًا عن المدينة الحجرية التي يؤمُّها السياح توجد أحياء عشوائية فقيرة مكتظة بالسكان، لا تتوافر فيها إمدادات المياه أو الكهرباء، الناس هنا يرتدون خليطًا من الملابس العربية والإفرنجية، أما النمط الإفريقي في الملابس فهو قليل، وهو يتكون من قميص وسروال فضفاض مليء بالجيوب، لم أجد «مقاسًا» يناسبني في معارض الملابس التي زرتها، فالأفارقة - أعزكم الله - أجسامهم رشيقة مفرودة ولست كذلك، وقد أرسل لي صاحب معرض للملابس حائكه الثرثار ليخيط لي ملابس إفريقية، وهكذا حضر فاروق الخياط الذي وعدني بخياطة «لبس» إفريقي على مقاسي وإحضاره إلى الفندق الذي أقيم فيه خلال ساعات، وقد صدق وعده، ولكنه لم يتقن صنعته.

صباحنا هذا ندي رطب، وسوف نزور اليوم قصر جواري السلطان برغش الذي أقامه سنة 1882، اختار السلطان بقعة على المحيط بعيدة عن العمران، ووسط جنة من الأشجار أقام قصره، ومده بالماء العذب الذي يأتي من نهر مويرا؛ ذلك النهر الذي يشق الجزيرة، وأقام الصهريج المرتفع الذي يدفع بالمياه إلى حمامات القصر عبر نظام دقيق من الأقنية والأنابيب، لم يدم الأنس في هذا القصر إلا سبع سنوات، إذ شبَّ حريق مروع سنة 1889 أتى على معظم أبنيته، فلم يبق منه إلا أطلال غرف الجواري والحمامات، كانت جواري السلطان شركسيات وحبشيات وآشوريات وبعضهن من چورچيا، ويستفاد من مذكرات الأميرة سالمة بنت سعيد أن الجارية في قصر والدها ووالد برغش، كانت تحصل على هدية من الحلي عند وصولها إلى قصر السلطان، وكان رئيس الخدم يعين للجواري ما يحتجنه من خدم، وعلى الجارية أن ترتدي الملابس العربية، تقول الأميرة : «وإذا جاءت امرأة شركسية بملابسها ذات التنورة العريضة، أو الحبشية بزيها الرائع ذي القماش الملفوف، توجب عليها أن تخلع هذه الثياب وتلبس الثياب العربية المخصصة لها، وكانت الجواري يتلقين دروسًا في القراءة والكتابة ومبادئ الدين الإسلامي» صحيح أن وصف الأميرة يتعلق بجواري والدها السلطان سعيد، لكنه ينير لنا بعضًا من عالم الجواري في قصور زنجبار، اللافتة الموضوعة أمام قصر الجواري مكتوب عليها Palace of secondary wives، وعندما زرت الجناح الخاص بالحمامات والذي بقي سالمًا من القصر وجدته يتكون من دورين من الغرف المتجاورة، لكل جارية غرفة في الدور العلوي، أسفلها مباشرة غرفة في الدور الأول مقسومة إلى قسمين: الحمام على النمط التركي وهو عبارة عن غرفة محفورة في الأرض ومبطنة بالرخام يصل الماء فيها إلى صدر الشخص، ثم مجلس يتسع لشخصين يجلس فيه السلطان لشرب القهوة وقد يستخدمه للصلاة، الماء الحار والماء البارد يصل إلى الحمامات عبر أقنية فخارية أو رخامية أو من الرصاص، عندما يريد السلطان أن يلاعب جارية، فإنه يذهب إلى الحمام الذي تحت غرفتها فتنزل له بمفردها، غرف الدورين العلوي والسفلي متراصة على خط مستقيم، لكن في نهاية الدور السفلي يوجد حمام واسع كبير، يجتمع فيه السلطان مع جواريه جميعًا، هذا لو أراد السلطان أن يلاعب ما ملكت يمينه دفعة واحدة.

يقول ابن خلدون: «إن الحمامات إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران، لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم» فأي بلهنية عاش فيها سلاطين زنجبار؟!، تقول الأميرة سالمة في مذكراتها إن شقيقها

السلطان برغش كان شديد الغيرة على ما ملكت يمينه من الجواري، حتى إنه كان أحيانًا يخفي نفسه في مكان ما بالقصر يستطيع منه أن يراقب النسوة المتفرجات على البحر أو الشارع، وتورد حكاية حدثت في العام السابق على زيارتها للجزيرة فتقول: «لمح السلطان وهو في مرصده السري إحدى محظياته الشركسيات، وكانت على جانب كبير من الملاحة والجمال، تلوح بالتحية إلى ملاح برتغالي كان يمر بزورقه أمام القصر، ولم يكن في عمل هذه السيدة ما يستوجب الشك والمؤاخذة فالعقاب، إذ أذكر أننا كنا - أيام طفولتي - قبل ثلاثين عامًا، نتقبل سلام الضباط والبحارة الإنجليز والفرنسيين ونرد عليهم تحيتهم بالشكر، ولم تثر تصرفاتنا هذه اعتراض أحد من سادتنا. لكن للسيد برغش رأيًا آخر في الموضوع، فقد ذهب إلى حسنائه الشركسية، وبدأ يجلدها بالسوط عن ذنب لا وجود له وبقسوة متناهية لم تحتملها، فأسلمت الروح بعد أيام قلائل، وقد قيل إنه ندم على فعلته بعد أن رأى شناعة نتيجتها وبشاعة جريمته، فأقبل على ضحيته يطلب منها الصفح والغفران فأبتهما عليه حتى أسلمت الروح، وتكفيرًا عن ذنبه فإنه مازال يقيم على قبرها تلاوة القرآن يوميًّا». وهكذا فإن السلطان برغش كان غيورًا على جواريه، عديم الغيرة على وطنه الذي أصبح القنصل البريطاني هو صاحب الكلمة العليا فيه.

أخرجنا أيها السائق الطيب من أمام قصر الجواري حتى لا تذهب النفسُ حسراتٍ على مجدٍ عربي ضاع بين الكاس والطاس.

في حدائـق البهــار

مقصدنا الآن حدائق البهار التي زرعها العرب في الجزيرة، السلطان سعيد عالي الهمة، جلب شجرة القرنفل من جزيرة موريشيوس، وحول أرخبيل زنجبار إلى أكبر مزرعة للقرنفل في العالم. بالجزيرة أفخر أنواع البهارات، أما طرقات الجزيرة فهي محوطة بأشجار جوز الهند، في الطريق إلى حدائق البهار وجدت منظرًا عجبًا، فطلبت من السائق أن يتوقف كي أعاينه، شجرة من أشجار جوز الهند تحورت ساقها بشكل لولبي كأنها راقصة باليه، ولاتزال رغم هذا التحور تنتج ثمرات جوز الهند، عجيبة والله، كرنفال من النباتات والأشجار ومقاهٍ بدائية توزعت على جانبي الطريق، وصلت سيارتنا إلى النقطة التي لا مسير للسيارات بعدها، أرى أمامي بيوت القرويين تتبعثر بين الأشجار، وها هو صبي يقبل علينا كي يتسلق أمامنا الشجر ويلقي لنا ببذور وثمار عجيبة، الولد يقفز كالطائر من شجرة إلى شجرة، لكنه لا يقرب الشجرة الطويلة، ارتفاع هذه الشجرة يفوق العشرين مترًا وساقها زلقة كالسيراميك تخرج منها الأشواك محززة، أتكون هذه هي الشجرة الغبية stupid tree التي قرأت عنها؟ يقال إنها تنمو في بعض جزر أستراليا وإنها تحورت على هذا الشكل فلا يستطيع أحد أن يتسلقها، وإنها لا تلقي بثمارها إلا في الليالي المظلمة حتى لا يراها أحد، لكن في الصباح يأتي السكان ليجمعوا ثمارها الحلوة دون جهد، ومن هنا اشتهرت بين الناس بأنها «الشجرة الغبية»، لست متأكدًا من أن تلك الشجرة التي أراها أمامي هي نفس الشجرة الغبية التي تنبت في أستراليا ولكنها بالفعل غبية، فهي طويلة تستعصي على من يحاول تسلقها، كأنها تحمي ثمارها من نهم الآكلين، لكنها في النهاية تلقي لهم ثمارها، وقد وجدت الثمار التي ألقتها من هذا الارتفاع الشاهق إلى الأرض ملفوفة في نسيج يشبه التيل يحمي الثمرة من صدمة السقوط، قال دليلنا إن القرويين يستخدمون هذا النسيج في حشو الوسائد والمراتب، تمتد غابات البهار أمامنا في كرنفال عجيب من الأطوال والأحجام المتفاوتة، والألوان المتداخلة، سلمت أيدي من زرعوا تلك الحدائق، تعبت من كثرة اللف والدوران في تلك الغابات، كل نوع من الأشجار يحتاج إلى شرح وتوضيح، لكن أعجب ما رأيت هو شجرة صغيرة تتوزع أوراقها مثل كف اليد، عندما لمستها جفلت وقبضت يدها، عجيبة والله، هل تملك هذه الشجرة جهازًا

عصبيًّا يترجم الإشارات ويصدر الأوامر؟ وهل لديها جهاز حركي ينفذ الأوامر بهذه السرعة؟ من أين لي بالعالم الفاهم الذي يشرح لي ما يشفي الغليل؟ من العجيب أني وجدته ولكني استحييت أن أسأله فقد أعجلني الوقت، فاكتفيت بمهاتفته ولم أشأ في هذا الاتصال التليفوني القصير أن أشغل الرجل بالأسئلة، إنه الخبير المصري الدكتور محمد حسن قاسم، مدير المزرعة النموذجية التي تقيمها مصر حاليًّا بزنزبار على مساحة 150 فدانًا، وذلك تنفيذًا لاتفاقية عقدت سنة 2004 بين وزارة الحكم المحلي في زنزبار ووزارة الزراعة المصرية، وقد علمت منه أن الغرض من هذه المزرعة هو تحسين الإنتاج النباتي والحيواني باستخدام تكنولوچيا الزراعة المصرية، وأنها مزرعة تجريبية بها 5 أنماط من نظم الري. خروج الخبراء المصريين إلى ميدان التحدي العلمي، مع توثيق وتطوير التجارب المشتركة من شأنه تطوير التكنولوجيا الزراعية المصرية وتوسيع معرفتنا ووجودنا بقارتنا التي لا نعرف عنها الكثير، ولا يخفى عليكم أن هذا الانتباه لإفريقيا قد جاء بعد صفر المونديال الشهير الذي ذكرنا بقارتنا، وقبل أن أنسى أود أن أخبركم أن مستشفى زنزبار يديره أطباء من مصر والصين وروسيا، والصندوق المصري للتعاون الفني مع إفريقيا يرسل في المتوسط سبعة أطباء مصريين إلى الجزيرة، أما وزارة الأوقاف فلها بعثة دائمة في الجزيرة،

شارع شعبي في زنزبار.

شيوخ زنزبار يتذكرون بالتوقير الشيخ المصري عبدالباري العجيزي الذي قدم إلى زنجبار في عشرينيات القرن الماضي وكان له أثر بالغ في تدريس اللغة العربية، وها أنا أنقل عن كتاب «صراع الحضارات على جزيرة زنزبار» لمؤلفه الشيخ الجزائري عبدالحق ميحي تهامي قوله: «ولا نغفل دور المعهد الإسلامي بزنجبار والذي تأسس عام 1952، وكان أول مدير له الشيخ محمود الدهان من جمهورية مصر العربية، وبعد أحداث 1964 أغلق نهائيًّا وأعيد افتتاحه مطلع السبعينيات ليمارس دورًا رائدًا في نشر الثقافة العربية والإسلامية،

ومشكورة وزارة الأوقاف في جمهورية مصر على جهودها الطيبة، حيث توفد في كل فترة كوكبة من أساتذة الأزهر الشريف ليسهموا من جديد في إعادة النفس العربي والإسلامي للجزيرة المسلمة».

وبعد عودتي من زنزبار إلى دار السلام علمت من مدير المركز الإسلامي المصري في تنزانيا الدكتور محمد راشد أن هذا المركز ليس مجرد مركز للدعوة، ولكنه فرع من جامعة الأزهر، فالأزهر هو الذي يحدد المناهج الدراسية ويرسل الامتحانات السنوية، والدراسة في المركز تنقسم إلى مرحلة ابتدائية بها 650 طالبًا، تمتد دراستهم إلى أربع سنوات، ومرحلة إعدادية مدتها ثلاث سنوات بها 350 طالبًا، ومرحلة ثانوية مدتها ثلاث سنوات بها 270 طالبًا، أي إن مصر لها معهد علمي في تنزانيا يدرس فيه حاليًّا 1270 طالبًا وطالبة تنفق عليهم وزارة الأوقاف المصرية، هذا بالإضافة إلى ستة عشر مبعوثًا تنزانيًّا يوفدهم المركز سنويًّا إلى القاهرة للدراسة بالأزهر، كذلك يوفد خمسة وعاظ تنزانيين إلى مصر كل عام للحصول على دورات تدريبية بالأزهر الشريف، ويقوم الشيوخ المصريون الذين يصل عددهم إلى أحد عشر شيخًا بإلقاء خطب الجمعة والدروس الدينية بمساجد دار السلام وبعض محافظات تنزانيا، فلن تجد في تنزانيا رجل دين إلا وقد ارتبط بالمركز المصري بسبب، فإما تعلم فيه، وإما تعلم على يد من تعلم فيه، زد على هذا أن المركز يقوم الآن بتجهيز وإعادة افتتاح العيادة المصرية بدار السلام، مصر إذن لها عشرات الآلاف من المثقفين المرتبطين بها تعليميًّا وثقافيًّا والقادرين على قيادة الرأي العام في تنزانيا لو أحسنا التعاون معهم، لكن للأسف لا توجد لنا هنا رابطة أو جالية تحافظ على الارتباط بمصر وتدعم المصالح المصرية المشتركة مع تنزانيا، ومما زاد الطين بلة أنه في الوقت الذي كانت الدبلوماسية المصرية تتوجه فيه نحو تطوير العلاقات مع تنزانيا، قامت مصر للطيران بإغلاق خط القاهرة - دار السلام، فقطعت بذلك الحليبة والرائبة، إذ لا يمكن الكلام عن تطوير العلاقات مع قطع المواصلات، خسرت مصر ملايين الدولارات وأوشك الجهد المصري أن يذهب بددًا بسبب قرار خاطئ من مصر للطيران، فإن قال رئيس مصر للطيران إن خط الطيران إلى تنزانيا كان يخسر، فقولوا له نيابة عني: قد كان لنا طائرة تطير يوميًّا بين دار السلام والقاهرة في الستينيات فكيف تدهور بنا الحال هكذا بعد أربعين سنة زادت فيها أعداد المسافرين؟ ثم قولوا له: إن خطوط الإمارات وخطوط قطر أصبح لكل منهما رحلة يومية بعد أن كانت أسبوعية فكيف تقهقرت شركة مصر لتتقدم شركات أخرى؟!، وخذ مني هذا المثل يا رئيس مصر للطيران، هنا في تنزانيا تنتشر طائفة البُهرة،

وكان الحجاج من الطائفة وهم في طريقهم إلى السعودية يستخدمون الخطوط الجوية المصرية، حيث يتوجهون أولاً إلى القاهرة لزيارة سيدنا الحسين قبل وبعد سفرهم للسعودية، ومنذ إلغاء الرحلة المصرية ضاع علينا هذا الدخل السياحي بسبب عشوائية القرارات، وفي ظل عسل تنام فيه وزارة السياحة المصرية التي يبدو لي أنها تعمل بالمقلوب، فهي ترسل وفودها إلى أوروبا وأمريكا لزوم التنشيط السياحي والذي منه، وبالطبع لن تأتي تلك الوفود المدللة إلى إفريقيا، وقد سمعت هنا أن أحد المنتجين المصريين كان يصدر كتاكيت عمر يوم واحد إلى تنزانيا، وكانت الرحلة المباشرة تستغرق ست ساعات يحتملها الكتكوت، ومع إلغاء الخط المصري طالت الرحلة عبر الخطوط البديلة طولاً لا يحتمله الكتكوت فتوقف التصدير من مصر، وقام المستورد التنزاني باللجوء إلى القضاء مطالبًا بالتعويض، وهذا ما جناه قرارك على الاقتصاد المصري يا رئيس مصر للطيران، وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن حينما أجد الفول المدمس تستورده تنزانيا من الإمارات، وتستورده الإمارات من أمريكا، بينما نحن المصريين ملوك الفول والعدس والبسلة واللوبيا، وكل هذه المعلبات التي تستوردها تنزانيا، نعجز عن الوصول بها إلى أسواق إفريقيا، وبضاعتنا أرخص وأفضل، وفي تنزانيا 17 مليون بقرة وعندهم مجازر آلية متطورة، نستطيع أن نأخذ منهم اللحم بما نعطيهم من منتجاتنا، ولتكن تجارتنا معهم في شكل مقاصة نعتمد فيها الجنيه الحسابي لتقييم السلع، دون الحاجة إلى الدولار، ذلك أزكى لنا ولهم نحن الفقراء بين الأمم، المهم وسيلة مواصلات سريعة وعقلية تجارية نشطة، فيا أيها الوزراء في حكومة مصر: أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، واعلموا أنه لا معنى للملايين التي تنفقها مصر على البعثات التعليمية ما لم يواكبها حركة تجارية تحقق مصالح البلدين، ولتفاوضوا رئيس مصر للطيران لإعادة الخط بين القاهرة ودار السلام، إنعاشًا للسياحة والاقتصاد، فإن كان الرجل يخسر فإني أدعو الوزارات المستفيدة كي تتشارك وتدفع تعويضًا للخطوط المصرية، ويا أسيادنا الذين في الحكومة، لا تجعلوا حبكم للخصخصة ولنشر الميزانيات في الجرائد يتناقض مع المصلحة الوطنية، ولينظر أعلمكم بالسياسة وأقرؤكم للاقتصاد إلى مصر للطيران على أنها ليست مجرد شركة ناقلة للركاب، بل هي وسيلة لتنشيط المصالح المصرية مع دول إفريقيا، حتى لا تنتهي مروءة القاهرة عند إيفاد الخبراء وإرسال البعثات بينما تتعطل المصالح الاقتصادية المشتركة التي هي غاية السياسة وبها صلاح العباد وعمار البلاد.

❀ ❀ ❀

زنجبـار: اليوم الثالث

جزيرة السجن Changuu Island: هي واحدة من عشرات الجزر الصغيرة التي تحيط بجزيرة زنجبار، تقع على بعد خمسة كيلومترات من المدينة الحجرية، وهي على البعد تبدو كأنها مستطيل أخضر صغير وسط مياه زرقاء، إذ يبلغ طول الجزيرة حوالي 800 متر، أما عرضها فهو لا يزيد في أقصى اتساع للجزيرة عن 250 مترًا، وقد ظلت الجزيرة غير مأهولة حتى وهبها السلطان ماجد عام 1860 لاثنين من العرب، فاستخدماها لاحتجاز العبيد المتمردين، وفي عام 1893 اشترتها الحكومة البريطانية من ملاكها العرب، وقررت بناء سجن فيها باعتبارها صاحبة الحماية على زنزبار، وقد اكتمل بناء السجن سنة 1894، ولكن البناء لم يستخدم كسجن أبدًا، فقد غيرت الحكومة البريطانية رأيها، وقررت استخدام هذه الجزيرة كمحجر صحي للتجار الذين يفدون إلى زنزبار خوفًا من انتشار الحمى الصفراء داخل زنزبار، وفي عام 1919 أرسل الحاكم البريطاني لجزيرة سيشل إلى نظيره حاكم زنزبار هدية عبارة عن أربع سلاحف عملاقة، تشتهر بها إحدى جزر سيشل، ويعتبر هذا النوع من السلاحف النادرة هو الأضخم والأطول عمرًا في العالم؛ إذ قد يصل عمرها إلى 200 عام، أما وزن الذكر منها فقد يصل إلى 250 كجم، وقد أخذت هذه السلاحف ترعى وتتناسل في أرض جزيرة شانجو (وهذا هو اسمها الإفريقي) حتى وصل عددها إلى 200 سلحفاة عام 1959، ولكن الناس بدأوا في سرقة هذه السلاحف وبيعها إلى هواة اقتناء الحيوانات النادرة، وقد سألت عن الأسعار التي يدفعها هواة الاقتناء ثمنًا لهذا النوع من السلاحف، فقيل لي إنه يتفاوت من ألف إلى عشرين ألف دولار وذلك حسب أسعار 2006، وعمومًا فإن الأمم المتحدة قد فرضت حمايتها على هذا النوع النادر من السلاحف، والآن تحول مبنى الحجر الصحي إلى فندق، كذلك يوجد بالجزيرة العديد من المحلات التجارية لخدمة مشتروات السياح، وكذلك بالجزيرة مطعم ومكتبة عامة.

❀ ❀ ❀

اليــوم الأخــير

لم نعد في حاجة إلى المرشد السياحي المستر أكسوچين، الذي تقتصر خبرته على وسط المدينة، ويومنا الأخير كان مخصصًا لزيارة أقصى جنوب الجزيرة، حيث أغرانا الوكيل السياحي بزيارة قرية ديمباني ذات الشاطئ الساحر كي نشاهد مسجد كزماكازي، وهو أول مسجد وضع للناس في شرق إفريقيا، كذلك وعدنا بالفرجة على دلافين البحر وهي تلعب مع السائحين، فاكتفينا بصحبة سائق السيارة، استغرق الطريق قرابة الساعة حتى وصلنا إلى ديمباني، وهي قرية صغيرة تستريح في حضن المحيط، بضع بيوت صغيرة متناثرة هنا وهناك، هذه القرية كانت في الماضي قرية صيادين، ولا يزال أهلها يعملون بالصيد، وإن كانت دلافين البحر وروعة الشاطئ قد جلبت السياح إلى هذا المكان، وذلك ما دفع ببعض شباب القرية إلى التخصص في عمل جولات بحرية للسائحين، لا يحتاج الأمر أكثر من مركب صغير وموتور دفع متنقل، في مدخل القرية وجدت ما يشبه مركزًا ثقافيًّا ألمانيًّا عبارة عن غرفتين، يوجد بهما إنترنت وتلفزيون، يستمد المركز الطاقة الكهربائية من خلايا ضوئية مثبتة أعلى المبنى، يمَّمَ العرب وجوههم شطر أمريكا وأوربا فلن تجد لهم أثرًا في هذه المناطق الفقيرة، رغم وجود أقدم مساجد شرق إفريقيا في هذه القرية ورغم انتشار الإسلام، فالبعثات العربية والإسلامية لن تجدها إلا في الأمصار المستحضرة المستبحرة في العمران، لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم، وحسبنا أن نشكو الزمان وأهله الذين يتآمرون علينا (نحن الألى شادوا العلا) وحسبنا أن نصف الوجود الأوربي في إفريقيا بأنه بعثات تنصيرية تحارب الإسلام، وحسبنا أن نصف التغلغل الصيني الذي تمدد إلى كل قرية إفريقية في صورة بضائع ومشروعات تنمية أنه أيضًا بعثات أيديولوچية غايتها محاربة الإسلام واقتلاع جذوره، وكل تلك تحليلات جوفاء، تفترض معارك وهمية، وميادين للصراع منفصلة عن السياق التاريخي، قد تريح ضمائرنا المثقلة بالهزائم حينما تجعلنا مستهدفين، كل العالم يحقد علينا ويكيد لنا، وذلك مناخ من التعبئة العالمية يعطينا أكثر مما نستحق من أهمية، لكن الحقيقة غير ذلك، وهي أن السياسة العالمية تتحرك بدوافع المصالح الوطنية، والوجود الأجنبي في إفريقيا هو وجود لدول تنتج وتبيع وتشتري، ولابد لها من دراسة ثقافات المجتمعات واحتياجات الشعوب، وإمكانيات التنمية المشتركة، لقد انقضى زمن الاستعمار التقليدي (الكولونيالي) صاحب البوارج الحربية وقوات الاحتلال النظامية، وأقبل زمن التجارة العالمية والشركات المتعددة الجنسية،

الصين هي أكبر مصدر لإفريقيا دون أن تحتل أي دولة إفريقية، والمنتجات الصينية تجدها في كل القرى الإفريقية، بجوار مشروعات صغيرة لمد القرى بالمياه النقية، أو تنمية الصناعات المحلية، أو دعم الخدمات الصحية، لكننا لا نزال نعيش في زمن البعثات التبشيرية التي نواجهها ببعثات إسلامية وكفى، لكن القوم هنا لا تكفيهم الدعوة الدينية فقط، إنهم يحتاجون إلى مياه نقية وإلى رعاية صحية وإلى تنمية مشتركة توفر فرص عمل حقيقية وأرباحًا تعود على الطرفين، لدى العرب الأموال، ولدى الأفارقة شباب يبحث عن فرص للعمل، لكننا لا نقدم لهم إلا نصائح تنفعهم في الآخرة بعد الممات، نحن لسنا أهل سياسة ولسنا أهل استثمار، ولو حكيت لكم ما جرى بيني وبين المستشار التجاري المصري محمد خلاف لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا.

لكن مالي أفتح زكائب الهمِّ المقفولة، وأمامي جولة أمشيها بالقدم إلى مسجد كزماكازي Kizimkazi Mosque، ورغم أن المسجد يقع في قرية ديمباني Dimbani ويبعد ثلاثة كيلومترات من كزماكازي، فإنه حمل اسم كزماكازي، التي كانت بلدة كبيرة في القرن الثاني عشر، تاريخ البناء الأول للمسجد يعود إلى سنة 500 هجرية (1107 ميلادية) وقد بناه مسلمون من شيراز، الكتابات الكوفية المكتوبة شمال المحراب تقول إن الشيخ سعيد بن أبي عمران أمر ببناء هذا المسجد سنة 500 هجرية، لكن الكتابات التي على يمين المحراب تقول إنه قد أعيد بناء هذا المسجد سنة 1772م، ولاتزال الشعائر تقام بهذا المسجد حتى الآن.

إمام مسجد زنزبار وحوله بعض المصلين سنة 1962م.

❀ ❀ ❀

البحث عن دلافــين المحيط

لم يعد في أقصى جنوب الجزيرة ما يستحق المشاهدة سوى دلافين البحر، فاستأجرنا قاربًا يحملنا إلى حيث تتجمع الدلافين، أمَرَنَا صاحب القارب الذي يحمل موتورًا على كتفه، أن نخلع نعالنا وأن نشمر ثيابنا، فالمياه ضحلة لا يرسو فيها القارب، وما إن وصلنا القارب حتى ألقى ربَّانه الرشيق الموتور في الماء وثبَّته في القارب، فانساب بنا الجندول.

آهٍ لو كنت معي نختال عَبرَه

حيث يروي الموجُ في أرخَم تَبرَه

حلم ليلٍ من ليالِ كليوباترا

رقص الجندول كالنجم الوضِي

فاشدُ يَا ملاحُ بالصوتِ الشجي.

ولكن ما إن رقص الجندول كالنجم الوضي، حتى طارت نفسي شعاعًا، فلست أخا عومٍ في المحيطات، ثم إن معي زوجتي، وهي أيضًا ليست أخت عومٍ في المحيطات ولا في غيرها، فتمهل بنا أيها الملاح - أصلحك الله - وفي الطريق لقيتنا قوارب عائدة كانت قد سبقتنا إلى البحث عن الدلافين، لكن ضوضاء المحركات وصراخ السياح قد جعل الدلافين تنسحب من السطح إلى عمق الماء، قال لنا الملاح إن الدلافين تظهر في الصباح، ولكن الضجيج يجعلها تهرب، و هكذا لم نتمكن من مشاهدتها، وفي طريق العودة كانت معالم زنزبار تتشكل أمامي بالتدريج، على البعد بدت كأنها أسطورة من أساطير السندباد، حوت ضخم ينام في الماء، وذلك ما جعل هذه الجزيرة الساحرة تستحق أن يطلق عليها لؤلؤة إفريقيـا.

على مطعم صغير بمدخل القرية تناولنا غداءنا: أرز وسمك، وسائقنا الطيب جمعة نبهنا إلى أنه يجب علينا أن ندعو الملاح الذي شاركنا الجولة البحرية إلى الغداء، الأفارقة لا يأكلون كثيرًا كما نأكل، بضع لقيمات يقمن صلبهم، ومعظمهم يأكلون وقوفًا، فإن سمعوا موسيقى رقصوا من فورهم، وقد

حضرت جنازة في تنجانيقا وجدت النساء فيها يرقصن على أنغام موسيقى تشوي القلب شيًّا، والرجال هنا أرقص من النساء، والأوساط الإفريقية على الشعرة، فهي تهتز مع أي موسيقى، وقد استعد سربنا للقيام، متوجهين إلى وسط زنزبار، حيث توجد غابة جوزاني الشهيرة، تلك الغابة التي كانت تغطي كل الجزيرة قبل فجر التاريخ.

قرد زنزبار النادر.

ومع ظهور البشر على ظهر الجزيرة أزيحت الغابات الكثيفة لتظهر التجمعات البشرية، لم يبق من الغابات الشاسعة التي كست وجه زنزبار قبل فجر التاريخ إلا غابة جوزاني، يعود الفضل في بقائها إلى الأمم المتحدة التي اعتبرتها محمية طبيعية منذ عام 1960، فحرمت قطع أشجارها أو صيد حيواناتها، تبلغ مساحة الغابة 40 كيلومترًا مربعًا، بها 100 نوع من الشجر، عرفت من بينها أشجار الماهوجني العملاقة التي يصل ارتفاعها إلى 20 أو 30 مترًا، شجرة عظيمة تسرح إلى السماء في شموخ، من خشبها تصنع أفخر أنواع الأثاث، أما أعجب ما رأيت فهي الشجرة المتطفلة، وهي شجرة قوية ذات روح شريرة تشعر بعنفها حينما تقترب منها، والعلم عندي أن النباتات المتطفلة هي نباتـات موسـمية صـغيرة، ولكن ها هي أمامي شجرة عملاقة تتطفل على أشجار عملاقة، يبلغ ارتفاعها فوق العشرين مترًا وتمتد جذورها القوية كي تخترق بشراسة سيقان الأشجار المجاورة لتمتص منها الغذاء، النهب الاستعماري أيضًا في دنيا النبات، فسبحان من يسلط أبدانًا على أبدان، وأشجارًا على أشجار، بالغابة أربعون نوعًا من الطير، الضفدع هنا في حجم عقلة الإصبع، والحرباء المتلونة لا يزيد طولها على بضع سنتيمترات، والخواجات من حولي يهللون ويقفزون كلما رأوا طيرًا أو حشرة، يقال إن في هذه الغابة بعض النمور، وقد وصف نمر زنزبار بأنه أصغر حجمًا من نمور إفريقيا، لكن يبدو أنه انقرض لأن آخر مرة شوهد فيها كان منذ عدة سنوات، تكتسب غابة جوزاني شهرة عالمية من وجود قرد الكولوبس الأحمر بها

COLOBUS RED MONKEY،تقول اللوحات الإرشادية إن هذا النوع النادر من القرود لا يوجد إلا في غابة جوزاني فقط، وإنه انفصـــل عـــن الفصيـــل الرئيســي الموجود في إفريقيا مند 15 ألف سنة، وإن عدد القرود الموجودة من هذا النوع حاليًّا هو 2350 قردًا، هذه القرود تتميز بوجود تاج أبيض على الرأس وهي تولد بظهور سوداء تتحول إلى اللون الأحمر في الشهر السادس من العمر، متوسط عمر القرد من هذا النوع 20 سنة، وفترة الحمل عندها 6 أشهر، وهي تعيش في مجموعات أو أسر تتكون من 30 إلى 50 قردًا، قادنا مرشدنا إلى مجتمع القرود التي يبدو أنها اعتادت على حملقة البشر وفلاشات الكاميرات فلم يظهر عليها أي نفور منا أو اهتمام بنا، تحذر اللوحات الإرشادية من إعطاء الطعام للقرود حرصًا على عدم نقل العدوى إليهم، وتقول إن القرود تواجه خطر الانقراض؛ إما بالمرض أو دهسًا بالسيارات أثناء عبورها الطرقات، في الماضي كانت هذه الجزيرة تعج بالأفيال التي كانت تتجول في المدينة الحجرية، وربما دفعت الأبواب وقد شاهدت بعض الأبواب القديمة وقد زينتها أنياب حديدية مدببة قيل لي إنها وضعت لطرد الفيلة في الزمن الغابر، انقرضت تلك الفيلة، أكلها البشر الذين يأكلون معظم ما على ظهر الأرض من نبات وحيوان، وقد حدثني من أثق بعلمه أن طعم لحم الفيلة كطعم لحم الجاموس، لا فرق ، أما صديقي الطبيب الصيني فقد أخبرني أن أفضل لحم أكله هو لحم التمساح المطبوخ، وقد أكله حينما زار كينيا، أسأل الله لي ولكم العافية والستر..

لم يبق من زمن رحلتنا هذه إلا ساعة أو بعض الساعة، ومقصدنا الآن زيارة أشجار المستنقعات؛ فالغابة التي نحن فيها تمتد حتى تغطس في الماء، وقد أقامت السلطات جسورًا خشبية عرضها متر وطولها مئات الأمتار؛ كي يمشي عليها السياح داخل المستنقعات، أشجار المانجروف العملاقة تتدلى جذورها الطويلة من رءوسها حتى تصل إلى الماء، تبدو الأشجار كأنها أفيال عملاقة كانت راحلة ثم توقفت ومدت خراطيمها كي تشرب. لو نظرت إلى أسفل فسوف ترى الأسماك تعوم بين الأشجار، وإن أنت نظرت إلى أعلى فسوف ترى كرنفالاً من الألوان، أوراق وأزهار بكل ألوان الطيف، لكنك لن ترى الآن أشعة الشمس وهي تتسلل من أعلى المشهد؛ ذلك لأن شمس هذا النهار قد أخذت تلملم خيوط أشعتها الصفراء وتتدحرج نحو المغيب، ليتكم حضرتم معي حفل الألوان هذا الذي أقامته لنا الطبيعة المبدعة، كأنها علمت أن هذا المشهد هو آخر وقائع رحلتنا إلى زنجبار. لؤلؤة إفريقيا وريحانة العرب وأرض القرنفل.

❀ ❀ ❀

لم تكن رحلتي إلى زنزبار هي آخر تجوالي في المدن والبراري، إذ إنني منذ أتيت إلى تنزانيا وأنا أخطط لزيارة واحدة من الحدائق المفتوحة الموجودة في تنجانيقا، وتلك غير غابة جوزاني التي زرناها في زنزبار لأن غابة جوزاني هي حديقة نباتية بالأساس، لكن الحدائق المفتوحة أو الـ (National parks) هي عبارة عن محميات طبيعية تضم العديد من الحيوانات والطيور تتعايش في توازن في بيئاتها الطبيعية، وتوجد في تنجانيقا العديد من تلك الحدائق المفتوحة وبها أكبر محمية طبيعية في العالم هي محمية سرينجيتي، لكن ما كان يقعدني عن تلك الزيارة هو طول السفر وضعف الراحلة؛ إذ لا يسمح بدخول تلك المناطق إلا للسيارات الجيب، ولست صاحب جيب، وأكره الترتيب مع وكالات السفر، وقد ظللت أؤجل تلك الرحلة حتي جاء الفرج مع تغير محافظ دودوما، فقد جاء المحافظ الجديد نشطًا ودودًا، دعا الأطباء الأجانب العاملين في دودوما إلى حفلة تعارف، وفي اللقاء كنت العربي الوحيد وباقي الأطباء من الصين مع عائلاتهم، وفي ذلك المساء سألني المحافظ عن أحوالي، فقلت له لم يبق لي في بلادكم إلا شهور، فوعدني بترتيب رحلة لي إلى غابة مكومي، وهي رابع محمية طبيعية من حيث المساحة في تنزانيا.

بعد أسابيع وفَّى الوفي بوعده، وأرسل لي سيارة (لاند كروزر) فاخرة مع سائق يتقن الإنجليزية، قطع بنا مائتين وخمسين كيلومترًا من مدينة دودوما إلى مدينة موروجورو ومنها توجهنا إلى غابة مكومي، على طول الطريق تناثرت القرى الصغيرة حيث الفقر لا تخطئه العين، لكن الطبيعة هنا ترقص فرحًا ومعها يرقص البشر، أهل تنزانيا يصنعون بهجتهم بأقل التكاليف، ما إن انتصف بنا الطريق حتى ظهرت أمامنا تكوينات صخرية عملاقة يزيد حجمها عن الكيلومتر ارتفاعًا تلك هي مرتفعات جبال أولوجورو، منها ما يخترق السحاب الأبيض، بعدها انفتح المشهد أمامنا على كل درجات اللون الأخضر، لا تستطيع الأبصار أن تدرك نهاية المشهد الذي يتلوى أمامنا مع تموجات الطريق، وسائقنا جيمس رجل مهذب وخبير بهذا الطريق، على البعد ظهرت نقاط حمراء تتحرك ففركت عيني حتى أستبين المشهد، فنبهني جيمس بأن ذلك قطيع من الغزلان، على جانب الطريق يتهادى فيل وحيد، وبالقرب منه زرافة شامخة العنق تنظر إلى سربنا بترقب ودلال، نحن إذن على أطراف الغابة المحمية، وتلك بعض حيواناتها، لكن السائق قال إن أمامنا قرابة

الساعة حتى نصل إلى باب المحمية، فلما وصلنا كانت الساعة الرابعة عصرًا حيث أخبرنا الحراس بانتهاء موعد الدخول، فقررنا أن نبحث عن فندق نقضي فيه ليلتنا.

أخبرنا الحراس أننا نستطيع المبيت داخل الغابة في واحد من منتجعين موجودين داخل الغابة التي تحوي الوحش والحيوان، وقال السائق جيمس إن قرية مكومي التي تبعد كيلومترات قليلة بها بعض الفنادق التي تستقبل السياح، فركبتني روح المغامرة، ورأيت أن تمام الزيارة لا يكون إلا بالمبيت في الغابة، فقام الحراس بالحجز لنا باللاسلكي في منتجع يقال له فوكس، وبموجب هذا الحجز تصرح لنا بدخول تلك المحمية.

جال بنا السائق عشر دقائق في طرق ضيقة متعرجة ثم انكشف المشهد على سهل تتوسطه هضبة جبلية يلتف حولها أربعة وعشرون مخيمًا تشكل دائرة واسعة، المسافة بين كل مخيم والذي يليه حوالي ثلاثمائة متر، مسافة تعطي الخصوصية وتمنع تطفل الجيران، ولكنها تقطع العشم في أي نجدة لو هاجمنا حيوان مفترس، قال لنا سائقنا جيمس إنه سوف يعود إلى قرية مكومي التي تجاور الغابة ليبيت في أحد فنادقها على أن يحضر في الصباح ومعه مرشد سياحي عليم بأسرار الحيوانات والنهى، وما إن أنزل حقائبنا حتى أقبلت سيارة جيب مكشوفة. توقفت أمامنا ثم ترجلت منها خَدَلَّجَةٌ قدمت نفسها على أنها سالي مديرة المنتجع، وشرعت في إعطائنا تعليمات الإقامة فقالت لا فض فوها ورُحم في القبر أبوها: سوف يصحبكم إلى خيمتكم حارس مسلح من الماساي فلا تبرحوا الخيمة لأي سبب إلا برفقته. ذلك لأنها - كما قالت- قد تلقت تقريرًا يفيد بأن فيلاً هائجًا يحوم حول المكان، في موعد العشاء سوف نرسل لكم حراسة مسلحة كي ترافقكم إلى المطعم الذي يقع أعلى الهضبة، وبعد العشاء سوف نشعل نارًا ونقيم حفلاً، وعندما تأوون إلى خيامكم سوف نقطع عنكم الكهرباء كي تندمجوا في الحياة البرية.

❀ ❀ ❀

الخيمة التي أوينا إليها مصنوعة بالكامل من أشجار الغابة حتى الأسرة التي ينام عليها النزلاء، أما الحمام فهو مبني بالطوب ومغلف بالسيراميك، اتساع الخيمة يصل إلى اتساع غرفتين لتستوعب أسرة كاملة، وأرضيتها ترتفع عن الأرض مقدار متر حتى لا تصلها الزواحف، بالخيمة شرفة واسعة تطل على الغابة، وفي السابعة مساء حضر رجل الماساي بحربته الطويلة وثوبه الأحمر

خيمــة مــن خيــام فنــدق فـوكــس
فـي غابـة مكومـي.

الملفوف حول بدنه كالملاية اللف، كي يصحبنا إلى المطعم الذي يقع أعلى التلة، فصعدنا معه سلمًا حجريًّا تحوطه لمبات الكهرباء، والكهرباء هنا يتم توليدها ذاتيًّا عن طريق نظام ضخم من الخلايا الكهروضوئية، بعد قرابة النصف كيلومتر صعودًا ظهر أمامنا مطعم فاخر يغرق في الضوء، كل الموجودين هنا خواجات أقبلوا من أقصى الحضارة يسعون وراء الطبيعة البكر، بجوار المطعم حمام سباحة محفور في الجبل، غير بعيد منه جلسة في الخلاء تحلقنا فيها، حيث أشعل الخواجات النار وبدأ التعارف، وأمام النار أخبرتني مديرة الفندق عن مستر فوكس مالك الفندق الذي أنشأه سنة 2001، والذي تعرض لحادث سيارة منذ سنتين حينما كان في زيارة لبلده إنجلترا، بعد هذا الحادث تقاعد الرجل، وقالت إنها كانت مفلسة تمامًا حينما حصلت على هذا العمل. وبعد تلك السهرة أعادنا رجل الماساي إلى خيمتنا، وما إن استدار خارجًا حتى قطعت عنا الكهرباء وغرقنا نحن والغابة في ظلام عميق وصمت مطبق، بدأت بعده مرحلة الهلع العظيم التي أصابت زوجتي. إذ لم تنم تلك الليلة ولم تتركني أنام، فقد أتاها الذعر في صورة وحوش تهجم علينا، وفيلة عملاقة تقتلع خيمتنا، وتماسيح تجري وراءنا، ونسور متوحشة تخلع رءوسنا.

تكاثرت الوحوشُ على مراتي فــلا تــدري بأيِّهمــا تمـــوتُ

حسبت أنني أهدي لها ليلة مميزة في العمر، فإذا بي قد جلبت لها رعبًا مقيمًا، لم يتبدد إلا بعد أن أشرقت شمس ذلك النهار بنور ربها، فخرجت معي إلى الشرفة لنجد آثارًا ضخمة لأقدام فيل يبدو أنه قد مر أمام خيمتنا وترك لنا توقيعه في صورة روثة كبيرة تحت الشرفة مباشرة، فازدادت زوجتي هلعًا على هلع، لم يخرجها منه إلا طيور الجو الملونة التي شرعت ترقص أمامنا ضاحكة ساخرة من خوفنا، وهاتفني چيمس سائقنا الطيب ليقول لي إنه ينتظرني في المطعم مع المرشدة السياحية «سيلفيا»، وفي المطعم حكينا لسيلفيا وقائع ليلتنا فضحكت وقالت إن الحيوانات لا تهاجم أحدًا إلا دفاعًا عن

النفس أو بسبب الجوع، فلا تخافوا ولا تحزنوا لأن وحوش الليل هي الضباع التي تأكل الجيف فقط، وهي حيوانات وظيفتها تنظيف الغابة من بقايا الصيد أو من الحيوانات النافقة، وذلك جزء من توازن الطبيعة، ثم جاءت مديرة الفندق لتتمنى لنا صباحًا طيبًا بعد أن أعطتنا علبة بها طعام الغداء الذي أعدته كي نأكله في الغابة، وفي السيارة مررنا بقطيع من الفيلة ولما هممت بالنزول من السيارة للتصوير منعتني سيلفيا قائلة إن الفيل الإفريقي شرس وخطر، على عكس الفيل الآسيوي الذي يمكن استئناسه والركوب على ظهره، وقالت إن الفيل الإفريقي أضخم حجمًا من الآسيوي؛ إذ يصل ارتفاع الذكر من فيلة إفريقيا إلى أكثر من ثلاثة أمتار ونصف المتر، أما وزنه فيتراوح بين خمسة أو ستة آلاف كيلوجرام، فتذكرت أجدادنا من فصيلة الهوموهابيلس الذين وضعوا الخطط وقسَّموا العمل ونجحوا في اصطياد هذا الحيوان الذي يقارب الجبال طولاً، واستمرت المرشدة في الشرح فقالت: إن أسنان الفيل قوية جدًّا وهو يستبدلها خمس أو ست مرات في العمر، فإذا ما وصل الفيل إلى الأربعين وفي بعض الحالات إلى الستين من عمره، فإن أسنانه تبدأ في التساقط دون أن يستطيع استبدالها، حينئذ يكون أجله قد انتهى فيموت من الجوع.

قلت: حدثينا يا سيلفيا عن هذه الغابة فقالت: إن هذه الغابة تصل مساحتها 3230 كيلومترًا مربعًا، وقد فرضت عليها حماية الأمم المتحدة سنة 1964، بها 400 نوع من الطيور ، وبها نوع نادر من الأسود يستطيع أن يتسلق الشجر، أما زراف هذه الغابة الذي تشهدونه الآن فهو يمثل حلقة وسط بين الزراف الصومالي وزراف الماساي، فالزراف الصومالي أصغر حجمًا وأغمق لونًا من زراف الماساي الأطول رقبة والأفتح لونًا، جماعة الزراف التي أمامي تهرب في دلال من سيارتنا ثم تتوقف لتنظر إلينا في رخاوة لترى إن كنا سنتبعها، أمامنا قطار أسود يصل طوله إلى كيلو متر تبينا فيه ملامح الجاموس الوحشي، عبرناه لتتماوج أمامنا قطعان الغزلان المرحة، الفيلة العملاقة تقطع علينا المشهد في كل زاوية، مسرعين بسيارتنا نمر بجاموسة منفردة، تقول سيلفيا إن الجاموسة إذا تقدمت بها السن تنفصل عن القطيع لتعيش وحدها؛ لأنها لا تستطيع السير بنفس سرعة جماعة الجاموس، حُمر الوحش تلون السهل بخطوطها السوداء المائلة، فجأة طلبت سيلفيا من السائق التوقف ونظرت في الأرض وقالت، ياإلهي كم أنتم محظوظون، فقد استيقظ اليوم أسد، وها هي آثار أقدامه وهو يسعى بحثًا عن صيد، قلنا ما هذا يا سيلفيا؟ ألا يستيقظ الأسد كل يوم؟! فقالت: إن الأسد هو من أكسل حيوانات

الغابة، فهو يستيقظ كل أسبوع ليصطاد فريسة يحملها إلى أهله، وهو يفضل الحمار الوحشي فيأكل منه هنيئًا مريئًا من خمسين إلى ستين كيلو لحم في وجبة واحدة بعدها ينام لمدة أسبوع، وعلى الفور أعطت سيلفيا التعليمات للسائق فغيَّر مسار السيارة، وأخذت تنظر للأرض وترشده، البنت قصاصة أثر بارعة، وبعد ساعتين وصلنا إلى الأسد الذي كان قد فرغ لتوه من وجبته وأمامه بقايا حمار الوحش، وقد استلقى بجوار زوجته التي ترقد في رومانسية متوحشة، وبالقرب منهما ثلاثة أشبال يتقافزون ويتضاربون، وقفنا بسيارتنا أمام الأسد فلم ينظر إلينا، أخرجت الكاميرا وبدأت في التصوير فلم يلتفت، استهان بنا السبع فلم يزأر، كأنه استكثر علينا لحظة خوف أو لحظة شجاعة.

فرغنا من الأسد فقادتنا سيلفيا إلى بحيرة واسعة، تقول اللوحة الإرشادية إن هذه البحيرة صناعية، حفرت منذ سنوات وتم تزويدها بتمساح ضخم وأعداد من فرس النهر، كان بوسعنا أن نترجل من السيارة لتشرح لنا المرشدة أن أفراس النهر التي تظهر رءوسها على سطح الماء أمامنا هي أخطر ضواري إفريقيا وأشدها عداءً للإنسان، الفرس الواحد فوق الجاموسة ودون الفيل من حيث الحجم، ووزنه قد يصل إلى ثلاثة أطنان أمَّا عمره فهو بين الأربعين والخمسين عامًا، ورغم جسده الضخم وأرجله القصيرة فإنه يستطيع الجري بسرعة ثلاثين كيلومترًا في الساعة، أي أسرع من العدائين من بني البشر، لكن لحسن الحظ أنه لا يستطيع الجري بهذه السرعة سوى عدة مئات من الأمتار، وهو يقضي يومه في الماء؛ لأن جلده لا يستطيع تحمل حرارة الشمس، وعند الغروب يخرج للرعي في مسافة أقصاها ثمانية كيلومترات، ليعود إلى البحيرة مع شروق الشمس.

أفراس النهر هي كائنات عدوانية كريهة المنظر منكرة الصوت، نطلق في مصر على الواحد منها اسم «سيد قشطة». الجعير المتقاطع لهذه الأفراس ذكرني بالرسالة الشهيرة التي أرسلها ملك الهكسوس الذين احتلوا الوجه البحري في مصر إلى «سقنن رع» حاكم طيبة (الأقصر حاليًّا) والتي يقول فيها (أسكتوا أفراس الماء في البحيرة الشرقية بطيبة، فضجيجها يحرمني من النوم نهاري وليلي وأصواتها تطن في مسامع مدينتي)، ولما كانت المسافة بين طيبة وأفاريس عاصمة الهكسوس (صان الحجر حاليًّا) هي مئات الأميال، فإن مضمون الرسالة بدا واضحًا لسيد طيبة وهو أن ملك الهكسوس يطلب منه تخفيض الاستعدادات العسكرية وإسكات اللهجة العدائية التي تطالب بطرد الهكسوس وإعادة توحيد الدولة، تلك الرسالة أغضبت سقنن رع وقواده

فبادروا إلى شن الهجمات على قوات الهكسوس، وفي واحدة من تلك المعارك سقط سقنن رع شهيدًا، فخلفه على طيبة ابنه كاموزه الذي استطاع حصار الهكسوس في عاصمتهم، لكنه سقط أيضًا شهيدًا على أسوار أفاريز، ليستكمل أخوه أحمس معركة التحرير، فيقضي على قوات الاحتلال ويطاردهم عبر سيناء إلى فلسطين ليختفوا تمامًا من صفحة التاريخ. ذلك الشرود إلى التاريخ يعني أن أفراس النهر كانت موجودة ومعروفة في نيل مصر حتى الدولة الوسطى، ويقال إن العرب حينما جاءوا إلى مصر شاهدوا هذا الحيوان، وأطلقوا عليه اسم «البرنيق». من شرودي ذلك توقظني سيلفيا لتطلب مني النظر إلى الطرف الآخر من البحيرة، فلا أتبين شيئًا، لكنها تلح عليَّ في التدقيق، لأرى تمساحًا أسود يتمدد في سكون فوق طين حافة البركة، وحش ضخم تقول سيلفيا، لا يتردد عن مهاجمة الإنسان، له ستين نابًا قاطعًا في فكه العلوي، وأربعون في فكه السفلي، ويعيش ستين سنة في المتوسط، بينه وبين فرس النهر عداوة تجعلني أسأل سيلفيا عن السبب في وجودهما معًا في نفس البركة، فقالت إن كليهما يحسب حساب الآخر ويعرف قوة الخصم، فهما في حالة تعايش حذر، قلنا ويحك يا سيلفيا. خذينا من أمام هذه الوحوش التي تضمر لنا الشر، وتنظر إلينا في ترقب، فقالت إلى أشجار البوابات (Boabab) سآخذكم، فنوادر هذه الغابة لا تقتصر على الحيوانات، إذ فيها أيضًا نباتات معمرة يصل عمرها إلى آلاف السنين، وفي الطريق أبصرنا مطارًا صغيرًا به خيمة كبيرة تقبع أمامها طائرة ذات مقعدين عليها شارة الأمم المتحدة التي تراقب الغابة وتمنع البشر من التعدي عليها. ثم مررنا بخيمة صغيرة عرضها متر وطولها اثنان، قالت

أشجار البواباب الضخمة.

سيلفيا شارحة: إن بعض السياح يفضلون المبيت في قلب الغابة دون حماية التماسًا للمغامرة وعشقًا لروح الغابة.

❀ ❀ ❀

طيور الجو تقف في خمول فوق أفرع الشجر، بعد أن عادت بطانًا، فتذكرت أننا قد تجاوزنا منتصف النهار بساعات ثلاث، وأن معنا طعامًا أعدته لنا سالي، فلما توقفت بنا السيارة أمام شجرة بوابات عملاقة، وجدت بجوار الشجرة مائدة مبنية من حجر فأكلنا وقوفًا، الشجرة التي نقف أمامها تبدو كعجوز تغضن وجهها، قطر الشجرة حوالي عشرة أمتار وارتفاعها حوالي عشرين مترًا، قلت يا سيلفيا هذه كتلة خشب ثقيلة فقالت إن ساق الشجرة مجوفة من الداخل؛ لذلك فإن بعض الأهالي يفتحون بابًا في الساق لينتفعوا بهذه الغرفة الطبيعية، وقالت إن في جنوب إفريقيا شجرة من هذا النوع يقدر عمرها بستة آلاف سنة، وقطر جذعها يصل إلى خمسة عشر مترًا، وقد بلغ من ضخامة هذه الأشجار أن الإنجليز في أستراليا قد اتخذوا من جذع إحداها سجنًا في نهاية القرن التاسع عشر، وهذه الشجرة السجن تعتبر الآن مزارًا سياحيًّا في أستراليا، وقالت إن الأهالي ينتفعون بأوراق هذه الأشجار التي تؤكل نيئة، أما ثمارها فإنها حلوة الطعم تصنع منها بعض العصائر (فيما بعد هذه المحادثة زرت الســودان، فصحبنــي صديقــي الدكتور منصور

اتخذ الناس من جذع شجرة البواباب الضخمة بيوتًا ومقاهي.

إخصائي الصدر بمستشفى الخرطوم بحري إلى سوق أم درمان حيث اشترى لي ثمارًا تسمى الجونجليز،

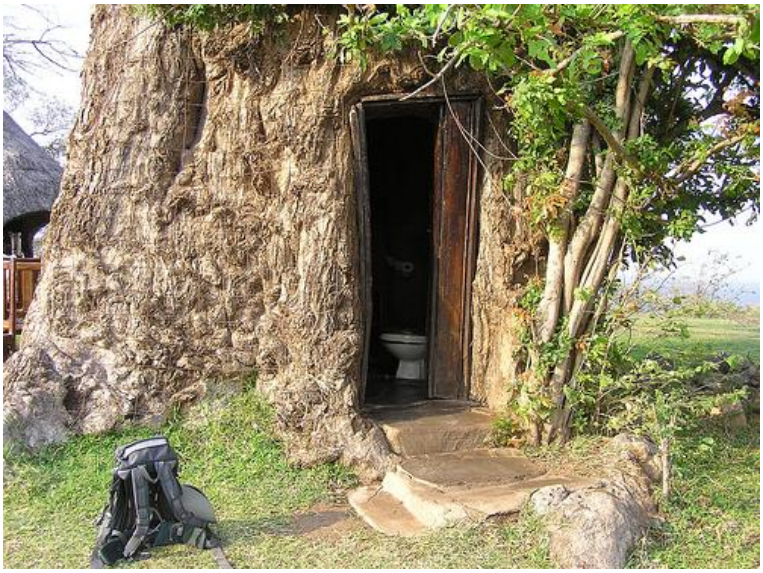

دورة مياه داخل جذع شجرة البواباب

قال لي إنها تنقع في الماء وتصفى بمصفاة فيكون منها شراب طيب هو المفضل على مائدة السودانيين في إفطار رمضان، وقال إن هذه الثمار تثمرها شجرة ضخمة في جنوب السودان يقال لها شجرة التبالدي، هي ذات الشجرة التي وجدتها في تنزانيا). ومع حديث شجر البوابات قاربت جولتنا في غابة مكومي على الانتهاء بعد أن اغتسلت أرواحنا من تفاهة الأيام وتشابهها، وفي طريق الخروج غمرنا صمت وأسى ونحن نودع الحيوانات تاركين لها عالمها البديع، وعند بوابة الغابة ودعنا سيلفيا وداع من يرجو لقاءها قريبًا، وبعد أن استرحنا في قرية مكومي التي كانت تنتظرنا على أطراف الغابة بدأنا في الاستعداد للعودة إلى العاصمة دودوما.

❀ ❀ ❀

ها هي سنوات إقامتي في تنزانيا توشك على الانتهاء، أربع سنوات قضيتها مرَّت عليَّ مــرور السحـاب في هذه البـلاد التي لا تنقضي عجائبها، في العام الرابع كنت العربي الوحيد في العاصمة دودوما، فقد رحل الدكتور زكريا الحلواني إلى مصر بعد أن انتهت بعثته، وكذلك فعل الدكتور عادل الوكيل، لكن المشاعر الدافئة لأهل هذه البلاد أنستني ألم الغربة، فلم يوجعني ما أوجع عمنا بيرم الذي أنشد متألمًا في منفاه في باريس:

لا سطل خروب يسعفني **ولا ابن نكته يكيفني**

ما يقصف العمر ويفنى **غير الخلايق بعبلها**

إذ لم نعد في مصر نشرب سطل الخروب، بعد أن أصبحت البيبسي كولا مشروبًا أمميًّا، تجده أينما تضرب في أقطار الأرض، ولا عاد ابن النكتة قادرًا على إغاثة المقهور ولا مواساة المغترب، إذ إن غربة هذا الزمان لم تعد قاصرة على البعد عن الوطن كما كانت أيام بيرم التونسي بل استجد من أنواعها ما هو أشد وأقسى وهو الغربة داخل الوطن، حينما يجد المرء نفسه يتيمًا على مأدبة اللئام، وما أكثر لئام هذا الزمان، وما أسفل طباعهم، وما أشد جشعهم، فلا شرب البيبسي ينجينا من عبثهم، ولا مجالسة ابن النكتة تشفينا من كيدهم.

❀ ❀ ❀

في أيامي الأولى في تنزانيا كنت أطرب عندما أعالج وزيرًا أو أقابل مسئولاً في الحكومة، ولكني في الفترة الأخيرة صرت لا أهتم إلا للفقراء الذين يأتون إليَّ من قراهم البعيدة، العطف على هؤلاء المساكين أكسبني معاني إنسانية كنت أجهلها فتعلمت منهم الابتسام عند الضيق، في أرواحهم ثراء وإن حاصرهم الفقر، وفي قلوبهم عواطف لا يبخلون عليَّ بها حينما أسير في الطريق فيحييني كبارهم ويداعبني أطفالهم، أما زوجتي فإنهم ينادونها بقولهم «ماما دكتور». ولمَّا علم مرضاي الفقراء أنني عائد إلى بلادي انحنى كبار السن وهم يشدون على يدي، بينما عانقتني العجائز باكيات فوجدت حضن أمي في كل واحدة منهن، وبعد السلام الحار كانوا يتراجعون للخلف ملوحين بكلتا يديهم قائلين: «كواهيري» وهي كلمة في لغتهم تعني «إلى اللقـــاء».

❀ ❀ ❀

دار نهضة مصر
للنشر